السلطان الحائر

توفيق الحكيم

توفيق الحكيم

السلطان الحائر

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهرزاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان) بنيويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتنتز بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ؛ وبالإنجليزيـة فى أمريكـا بدار نشر (ثرى كنتننتـز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزيـة فى أمريكـا بدار نشر (ثرى كنتننتـز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى برس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة توبليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولونج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ويندر ونشر دار ماكميلان — لندن .

الفصل الأول

« ساحة بالمدينة ، فى عصر سلاطين المماليك . الفجر يكاد يبزغ ، وقد خيم السكون .. عمود شد إليه محكوم عليه بالإعدام ، وجلاده على مقربة منه يجاهد فى مقاومة النعاس »

* * *

المحكوم عليه : « متأملا **جلاده** » تنعس ؟!... طبعًا تنعس ... ناعمًا !... هانئًا !... لأنك لا تنتظر ما يكدر صفوك !...

الجلاد : صه !...

المحكوم عليه : وأخيرًا ؟... متى ؟...

الجلاد : قلت لك صه !...

المحكوم عليه : « **متوسلا** » قل لى بحقك متى ؟... متى ؟...

الجلاد : متى تكف أنت عن إزعاجى ؟!...

المحكوم عليه : آسف !... ولكنه أمر يهمنى بوجه خاص !... متى يتم هذا الحادث ... السار بالنسبة إليك !...

الجلاد : عند الفجر ... قلت لك هذا أكثر من عشر مرات ... عند الفجر !... أنفذ فيك الحكم !... فهمت الآن ؟... دعنى إذن أنعم بالسلام لحظة !...

المحكوم عليه : الفجر ؟!... إنه لم يزل بعيدًا !... أليس كذلك أيها

الجلاد ؟!...

الجلاد : لست أعرف ...

المحكوم عليه : لا تعرف ؟!...

الجلاد : المؤذن هو الذى يعرف ... متى صعد إلى مئذنة هذا المسجد وأذن لصلاة الفجر ، نهضت أنا إليك بسيفى وأطحت برأسك ... تلك هى الأوامر !... استرحت الآن ؟!...

المحكوم عليه : بدون محاكمة ؟!... إنى لم أقدم بعد إلى المحاكمة ... ولم أمثل بعد بين يدى القاضى !!...

الجلاد : ليس هذا من شأنى ...

المحكوم عليه : حقًا !...ليس من شأنك سوى إعدامى ...

الجلاد : عند الفجر ... تنفيذًا لأمر السلطان !...

المحكوم عليه : لأية جريمة ؟!...

الجلاد : لا شأن لى !...

المحكوم عليه : لأنى قلت ...

الجلاد : صه !... صه !... أغلق فمك . لقد أمرت بقطع رقبتك فى الحال لو نبست بحرف عن جريمتك ...

المحكوم عليه : لاتنزعج !... أغلقت فمى !...

الجلاد : هذا خير ما تفعل !... أن تغلق فمك وأن تتركنى أهنأ بنومى !... إنه من مصلحتك أن أستمتع بنوم هادئ هنيء !...

المحكوم عليه : من مصلحتى ؟!...

الجلاد : بالتأكيد ... من مصلحتك أن أكون فى راحة تامة وصحة جيدة جسما ونفسًا ؛ لأنى حين أكون متعبًا ، ضيق الصدر ، متوتـــــر الأعصاب ... فإن يدى تصاب بالرعشة ، وعندما تصاب بالرعشة فإنى أؤدى عملى أداءً سيئا ...

المحكوم عليه : وما شأنى بعملك ؟!...

الجلاد : يا أحمق !... عملى متصل برقبتك !... إن سوء الأداء معناه أن رقبتك لن تقطع قطعًا حسنًا ... لأن القطع الحسن يحتاج إلى يد ثابتة ونفس هادئة ، حتى يطاح الرأس بضربة واحدة ، لا تدع لك وقتا للإحساس بالألم ... فهمت الآن ؟!...

المحكوم عليه : حقًا ... هذا صحيح !...

الجلاد : أرأيت ؟... واقتنعت ؟... إنه من اللازم لك أن تهيئ لى الراحة ، وأن تدخل على قلبى البهجة ، وأن ترفع من روحى المعنوية !...

المحكوم عليه : روحك المعنوية ؟!... أنت ؟!...

الجلاد : بالطبع ... ولو كنت أنا فى مكانك ...

المحكوم عليه : اللهم اسمع منه !...ليتك كنت فى مكانى !...

الجلاد : ماذا تقول ؟!...

المحكوم عليه : استمر !... ماذا كنت تفعل ، لو قلت الشرف والغبطة بأن تكون فى مكانى ؟!...

الجلاد : أقول لك ماذا كنت أفعل : هل معك نقود ؟...

المحكوم عليه : آه ... النقود !... نعم ... نعـم ... نعـم !... النقود !... فكرة صائبة !... أما النقود يا صاحبي فحدث عنها ولا حرج !... المدينة كلها تعرف — وأنت منهم — أنى من أغنياء التجار وأثرياء النخاسين !...

الجلاد : لا ... إنك أسأت الفهم ... ليست الرشوة !... من المستحيل أن ترشونى !... لا بفضل أمانتى ونزاهتى ... بل لأنى — بكل صراحة — لن أستطيع إنقاذك ... كل ما أردت هو تلبية دعوتك إلى الشراب إذا دعوتنى ... إن قدحًا من النبيذ ليس رشوة !... وإنه لمن سوء الأدب أن أرفض دعوتك ... انظر !... ها هنا خمار على مرمى البصر منك ... حانه مفتوح طول الليل ، لأن له زبائن ممن يزورون تلك العاهرة التى تقطن المنزل المقابل ...

المحكوم عليه : الشراب ؟... فقط ؟!...

الجلاد : فقط ...

المحكوم عليه : عندى فكرة أظرف وألطف !... فلنصعد معًا — أنا وأنت — إلى تلك الجميلة !... إنى أعرفها ... فإذا صرنا إليها قضينا عندها ليلة رائعة لن تحسب من العمر ... ليلة تملأ قلبك بالبهجة والمرح ، وترفع روحك المعنوية !... ما قولك ؟...

الجلاد : لا يا سيدى الكريم !...

المحكوم عليه : تقبل دعوتى إلى الشراب ، وترفض دعوتى إلى مجلس شراب وأنس ، وحسن وطرب ؟!...

الجلاد : فى ذلك المنزل ؟!... لا يا عزيزى المحكوم عليه !... إنى أفضل أن تبقى كما أنت ... مقيدًا بأغلالك حتى الفجر !...

المحكوم عليه : يا للأسف !... أنت لا تثق بى !... ولو وعدتك بأنى قبيل أذان الفجر أعود إلى مكانى من الأغلال كما كنت ؟...

الجلاد : عصفور يعود إلى الشبكة كما كان ؟!...

المحكوم عليه : نعم ... وإنى لأقسم لك بشرفى !...

الجلاد : شرفك ؟!... يا له من قسم !...

المحكوم عليه : أنت لا تصدقنى ...

الجلاد : أصدقك ما دمت فى مكانك هذا والقيد فى يديك !...

المحكوم عليه : وكيف أستطيع إذن أن أدعوك إلى الشراب ؟!...

الجلاد : الأمر بسيط ... أذهب أنا إلى الحان ، وأطلب إلى الخمار أن يجيء بقدحين من أجود خمره ، فإذا جاء بهما شربنا ونحن فى مكاننا هذا !... ما قولك ؟!...

المحكوم عليه : لكن ...

الجلاد : اتفقنا !... أذهب أنا ولا حاجة بك أنت إلى تكلف العناء والمشقة !... لحظة واحدة ... بعد ذلك !...

○ يتجه الجلاد إلى حانة فى طرف الساحة ، ويطرق

بابها ، فيخرج إليه الخمار ليهمس فى أذنه كلاما ، ثم يعود إلى مكانه .. »

الجلاد : « **للمحكوم عليه** » تم المراد وقضينا المطلوب ... وسترى يا عزيزى المحكوم عليه النتيجة السارة عما قريب !...

المحكوم عليه : أى نتيجة سارة ؟!...

الجلاد : عملى المتقن ... فأنا إذا شربت أتقنت العمل وإذا لم أشرب قل على عملى السلام !... أذكر لك على سبيل المثال ما حدث ذات يوم : كلفت بإعدام شخص ، ولم أكن قد شربت يومئذ شيئا ... فهل تدرى ماذا صنعت ؟... ضربت عنق ذلك المسكين ضربة عنيفة هوجاء ، أطاحت برأسه وأطارته فى الهواء ، فسقط بعيدا ، لا فى سلتى أنا هذه ، بل فى سلة أخرى هنالك ... سلة الإسكاف المجاور للدكان ... ويعلم الله كم بذلنا من الجهد والعناء ، لنخرج ذلك الرأس الضائع من بين أكداس الأحذية وأكوام النعال !...

المحكوم عليه : سلة الإسكاف !... بئس القرار !... أستحلفك بالله أن تبعد رأسى عن هذا المصير !...

الجلاد : لا تخف !... الأمر بالنسبة إليك مختلف !... الرأس الآخر كان لرجل بخيل متن فى البخل !...

« **يظهر الخمار خارجا من حانه ، يحمل قدحين** »

الخمار : « **متجها إلى المحكوم عليه** » هذا بالطبع لك أنت ... رغبتك الأخيرة !...

المحكوم عليه : بل للجلاد !... رغبته العزيزة !...

الجلاد : « **للخمار** » لأدخل على قلبه السكينة والارتياح !...

الخمار : وممن أتقاضى حقى ؟...

المحكوم عليه : منى أنا طبعا ... لأدخل على قلبه الغبطة والبهجة !...

الجلاد : إنه لمن الواجب علىَّ أن أقبل دعوته الحارة !...

المحكوم عليه : وإنه لمن الواجب علىَّ أن أرفع روحه المعنوية !...

الخمار : يا لكما من صديقين حميمين !...

الجلاد : إن المحبة بيننا متبادلة !...

المحكوم عليه : إلى أن يطلع الفجر !...

الجلاد : دعك الآن من الفجر ... إنه لم يزل بعيدا !... هلم بنا نفرغ الكئوس !...

« **الجلاد يتناول القدحين ، ويقرع أحدهما بالآخر ، ثم يرفع قدحا ... فى نخب المحكوم عليه ......** »

فى صحتك !...

المحكوم عليه : لك الشكر !...

الجلاد : « **بعد أن يجرع قدحه يدنى القدح الآخر من فم المحكوم عليه** » الآن دورك أيها العزيز !...

المحكوم عليه : « **يجرع جرعة ثم يسعل** » كفى !... اشرب أنت الباقى عنى !...

الجلاد : أهذه رغبتك ؟...

المحكوم عليه : الأخيرة !...

الجلاد : « **يرفع القدح الثانى** » أرفع كأسى إذن فى نخب ...

المحكوم عليه : عملك المتقن !...

الجلاد : إن شاء الله !... وكذلك في نخب كرمك ولطفك أيها الصديق المحكوم عليه !...

الخمار : « وهو يتلقى القدحين الفارغين من الجلاد » ماذا صنع هذا النخاس الكهل ؟... ما جريرته ؟... كلنا نعرفه في المدينة ... ما هو بسفاح وما هو بسارق !...

المحكوم عليه : وبرغم ذلك فإن رأسي سيطاح به عند الفجر ، كما يطاح برأس السفاح ورأس السارق !...

الخمار : لماذا ؟... لأية جريمة ؟...

المحكوم عليه : لا لشيء إلا لأني قلت ...

الجلاد : صه !... لا تنبس بحرف !... أغلق فمك !...

المحكوم عليه : أغلقت فمي !...

الجلاد : وأنت أيها الخمار قد أخذت قدحيك فامض لشأنك !...

الخمار : ونقودي ؟...

الجلاد : هو الذي دعاني ... واللئيم من يرفض الدعوة !...

المحكوم عليه : حقًا ... دعوته وتفضل هو بالقبول ... نقودك يا صاحب الحان هنا في كيس بمنطقتي ... تقدم وخذ ما تريد !...

الجلاد : اسمح لي أن أتقدم أنا عنه ... « **يتقدم ويأخذ من كيس المحكوم عليه نقودًا ويدفع للخمار** » خذ حقك !... وقد زدناه ... لتعلم أننا كرماء !...

« **الخمار يتناول حقه ، ويعود إلى حانه ، ويأخذ الجلاد في الترنم بالغناء الخافت ...** »

المحكوم عليه : « **قلقًا** » والآن ...

الجلاد : الآن نشرع في الغناء والطرب !... هل تدري يا عزيزي المحكوم عليه أني من المغرمين بالغناء الحسن ، المفتونين بروائع النغم ، الكلفين بجيد النظم والإنشاد ؟... إن هذا يملأ القلب هناءة وحبورًا ، وفرحة بالحياة وسرورًا !... غنِّ لي شيئًا !...

المحكوم عليه : أغني ؟!...

الجلاد : نعم !... ولِمَ لا ؟... ما الذي يمنعك ؟... حنجرتك — ولله الحمد — حرة طليقة ... فما عليك إلا أن ترفع عقيرتك بالغناء ، فيخرج النغم الحلو يشنف الآذان ... هيا ... غنِ !... أطربني ؟...

المحكوم عليه : ما شاء الله !... اللهم فاشهد !...

الجلاد : هلم !... غنِ ... أسمعني ...

المحكوم عليه : أوَ ترى حقًا أن لي الآن المزاج الذي يصلح للغناء ؟!...

الجلاد : أوَلم تعدني منذ قليل بإدخال البهجة على نفسي ، وكشف الانقباض عن صدري ؟...

المحكوم عليه : أنت الذي يشعر بالانقباض ؟!...

الجلاد : نعم ... وأرجوك أن تزيل انقباضي !... اغمرني في المرح غمرًا !... أمتعني بنفحات من الأناشيد والأغاني ... أغرقني في الطرب بحلو الأنغام وروائع الألحان !... اسمع !... تذكرت شيئًا ... إني أحفظ أغنية نظمتها بنفسي في ليلة من ليالي السهاد والشجن !...

المحكوم عليه : غنها أنت إذن !...

الجلاد : ليس لى الصوت الجميل !...

المحكوم عليه : ومن قال لك : إن صوتى — أنا الآخر — جميل ؟!.

الجلاد : كل أصوات الآخرين عندى جميلة ... لأنى لا أصغى إليها ... ولا سيما إذا كنت ثملا !... كل ما يهمنى هو أن يحيط بى الغناء من كل جانب ... الشعور بالجو المشبع بالطرب من حولى يريح أعصابى ... وأحيانا يحلو لى أن أغنى ... أنا نفسى .. ولكن لا بد لذلك من شرط : هو أن أجد من يسمعنى !... وإذا وجد السامع فحذار حذار ألا يبدى الإعجاب والاستحسان ... وإلا ... وإلا فإنى أستحى وأخجل ويرتج علىّ ، ثم أغضب غضبًا شديدا ... الآن وقد نبهتك إلى الشرط . فهل أغنى ؟...

المحكوم عليه : غنّ !...

الجلاد : وهل ستعجب بى وتستحسن ؟...

المحكوم عليه : نعم !...

الجلاد : وعد أكيد ؟...

المحكوم عليه : أكيد ...

الجلاد : إذن ... أغنى لك تلك الأغنية الرقيقة ... أتصغى ؟...

المحكوم عليه : أصغى وأستحسن ...

الجلاد : الاستحسان يأتى فى النهاية ... أما الآن فالمطلوب منك هو الإصغاء فقط ...

المحكوم عليه : أصغى فقط ...

الجلاد : حسن ... هل أنت مستعد ؟...

المحكوم عليه : لماذا ؟... ألست أنت الذى سيغنى ؟...

الجلاد : بلى ... ولكن من الضرورى أن تكون أنت مستعدا للاستماع !...

المحكوم عليه : وهل أستطيع شيئًا آخر ؟!... إنك قد تركت لى أذنى حرة طليقة ... من أجل ذلك بلا ريب !...

الجلاد : إذن فلنبدأ !... هذه الأغنية الرقيقة وعنوانها « الزهرة والبستانى » ... أنا الذى نظمتها ... نعم نظمتها بنفسى !...

المحكوم عليه : أعرف ذلك ...

الجلاد : عجبًا !... من قال لك ؟...

المحكوم عليه : أنت بفمك منذ لحظة !...

الجلاد : حقًا ... حقًا ... والآن هل تريد أن أبدأ ؟...

المحكوم عليه : ابدأ !...

الجلاد : هأنذا أبدأ ... استمع ... ولكنك لا تستمع !...

المحكوم عليه : إنى أستمع ...

الجلاد : يجب أن يكون الاستماع بغاية الانتباه !...

المحكوم عليه : بغاية الانتباه !...

الجلاد : حذار أن تخجلنى بشرود ذهنك ، أو عدم اهتمامك ؟.

المحكوم عليه : إنى مهتم !...

الجلاد : هل أنت مستعد ؟...

المحكوم عليه : نعم !...

الجلاد : لست أراك متحمسًا غاية التحمس !...

المحكوم عليه : وكيف أفعل ذلك ؟...

الجلاد : أريد أن تلتهب بالحماسة التهابًا ... اذكر لى أنك تلح وتلح فى أن تستمع إلى غنائى !...

المحكوم عليه : ألح وألح ...

الجلاد : إنك تقولها بفتور وبرود !...

المحكوم عليه : برود ؟!...

الجلاد : نعم ... أريد أن يكون الإلحاح صادرًا من أعماق قلبك !...

المحكوم عليه : إنه من أعماق قلبى !...

الجلاد : إنى لا أستشعر حرارة الإخلاص فى صوتك !..

المحكوم عليه : الإخلاص ؟!...

الجلاد : نعم ... إنه لا يبدو فى نبرات صوتك ، لأن النبرات والخلجات تنم عن حقيقة المشاعر ... وصوتك فاتر بارد !...

المحكوم عليه : وأخيرًا ؟!... ستغنى ؟... أو لن تغنى ؟!...

الجلاد : لن أغنى ...

المحكوم عليه : الحمد لله !...

الجلاد : تحمد الله على عدم غنائى ؟!...

المحكوم عليه : بل أحمد الله دائمًا على غنائك أو عدم غنائك على السواء !... ولا أحسب هنالك من يعترض على حمد الله فى كل الأحوال !...

الجلاد : إنك فى قرارة نفسك تتمنى ألا أغنى !...

المحكوم عليه : قرارة نفسى ؟!... وهل يعلم السرائر إلا الله !؟...

الجلاد : إذن تريد أن أغنى ؟...

المحكوم عليه : إذا شئت !...

الجلاد : سأغنى ...

المحكوم عليه : غن ...

الجلاد : لى الآن شرط . توسل إلىّ — أولًا — أن أغنى ... قدم إلىّ توسلاتك ؟...

المحكوم عليه : أتوسل إليك ...

الجلاد : قلها برقة واستعطاف !...

المحكوم عليه : أرجوك ... أتوسل إليك ... بربك ورب الخلق أجمعين !... أسأل الله الواحد القهار ، القوى الجبار ، أن يلين قلبك القاسى ، فتصغى إلى التماسى وتمن على وتتفضل بالغناء !...

الجلاد : مرة أخرى !...

المحكوم عليه : ماذا ؟...

الجلاد : كرر هذا التوسل والالتماس !...

المحكوم عليه : سبحان الله !... ارحمنى !... إنك أهلكتنى بكل هذا التمنع والدلال !... غن إذا كنت تريد أن تغنى ، وإلا فاتركنى بربك لحالى وما أنا فيه !...

الجلاد : غضبت ؟!.. لست أحب أن تغضب !... سأغنى لأهدىء ثورة نفسك ، وأزيل كدر صفوك !... هأنذا

أبدأ !...

« يسعل ، ثم يترنم بصوت خافت تمهيدًا للغناء »

المحكوم عليه : أخيرًا !...

الجلاد : « يقف فجأة » إذا كنت تفضل ألا أغنى فقلها صراحة !...

المحكوم عليه : يا إله السماوات !... إنه سيجود !...

الجلاد : أنفد صبرك ؟...

المحكوم عليه : وأى نفاد !؟...

الجلاد : أأنا أعذبك ؟...

المحكوم عليه : وأى عذاب !...

الجلاد : صبرًا جميلا يا عزيزى !... صبرًا جميلا !...

المحكوم عليه : إن هذا الجلاد يعدمنى إعدامًا !...

الجلاد : ماذا تقول ؟...

المحكوم عليه : لم أعد أحتمل !...

الجلاد : لم تعد تحتمل انتظارًا ... يا لك من مضنى مسكين أحرقه الشوق إلى غنائى !... سأبدأ إذن !... لن أجعلك تنتظر طويلا !... هأنذا أبادر !... استمع !... ها هى ذى الأغنية الرقيقة !...

« يتنحنح ويترنم ، ثم يغنى بصوت الثمل السكران : .... »

يا زهرة عمرها ليلة !...
عليك السلام من المعجبين

إذا أذن الفجر غدا تقطفين ،
ويسقط عنك رداء الندى !...
وفى سلة من حطب ترقدين ،
وتخفت من حولك ألحانى !...
ويبرق فى الجو نصل السردى ؛
مضيئًا فى يد البستانى !...
يا زهرة عمرها ليلة !...
عليك السلام عليك السلام !...

« صمت .... »

الجلاد : لماذا أنت صامت ؟!... ألا تستحسن ؟!... هذا وقت الإعجاب والاستحسان !...

المحكوم عليه : أهذه أغنيتك الرقيقة يا جلاد النحس ؟!...

الجلاد : من فضلك !... إنى لست جلادًا !...

المحكوم عليه : ومن تكون ؟...

الجلاد : أنا بستانى ...

المحكوم عليه : بستانى ؟!...

الجلاد : نعم بستانى !... أتفهم ؟... بستانى !... « يصيح ثملا وأنا بـ ... سـ ... تا ... نى !...

« تفتح نافذة فى منزل الغانية ، وتطل منها الخادمة »

الخادمة : ما هذه الجلبة ؟... ما هذا الضجيج والناس نيام !... مولاتى تشكو الصداع ، وتريد النوم الهادئ !...

الجلاد : « ساخرًا » مولاتك !؟... « يضحك هازئًا »

مولاتها !...

الخادمة : قلت لك كف عن هذا الصخب !...

الجلاد : اغربي عن وجهي يا خادم الفجور والخنا !...

الخادمة : لا تسب مولاتي !... إنها لو شاءت لكان لها عشرون كناسًا من أمثالك ، يكنسون التراب من تحت حذائها !...

الجلاد : خرست وخسئت يا قذارة القاذورات !...

« **الغانية تظهر في النافذة خلف خادمتها** »

الغانية : ماذا حدث ؟!...

الخادمة : هذا الجلاد المخمور ، يعربد ويقذفنا بالسباب !...

الغانية : أويجرؤ ؟!...

الجلاد : « **مشيرًا إلى النافذة** » ها هي ذي ــ بجلالتها ــ مولاتها المشهورة !...

الغانية : بعض الاحترام أيها الرجل !...

الجلاد : « **يضحك ساخرًا** » الاحترام ؟!...

الغانية : نعم ... ولا ترغمنا على تعليمك كيف تحترم السيدات !...

الجلاد : السيدات ؟!... « **يضحك** » السيدات ؟!... إنها تقول السيدات ؟!... اسمعوا وتعجبوا !...

الغانية : « **لخادمتها** » انزلي إليه ولقنيه درسًا في الأدب !...

الخادمة : « **للجلاد** » انتظرني إذا كنت رجلا !...

« **تختفي المرأتان من النافذة** ... »

الجلاد : « **للمحكوم عليه وقد أفاق قليلا** » ماذا تنوي أن تفعل هذه الشيطانة ؟... هل تعرف أنت ؟... إنها لقادرة على كبيرة !... أرأيت كيف هددتني وتوعدتني ؟...

الخادمة : « **تخرج من باب المنزل رافعة في يدها نعلا** » تعال هنا !...

الجلاد : ماذا ستفعلين بهذه النعل ؟...

الخادمة : هذه النعل هي أقذر ما وجدت في الدار وأعتق ... أتفهم ؟... ولم أعثر على أعتق منها ولا أقذر ، مما يليق بوجهك القبيح الأغبر ...

الجلاد : ها هو ذا قدح النبيذ اللذيذ قد طار من رأسي !... أسمعت كلامها المهذب النظيف أيها المحكوم عليه ؟!...

المحكوم عليه : نعم !...

الجلاد : ولا تنبس بحرف ؟!...

المحكوم عليه : أنا ؟...

الجلاد : ولا تحرك ساكنًا ؟!...

المحكوم عليه : كيف ؟!...

الجلاد : تتركها هكذا تلحق بي الإهانات وأنت صامت ؟!...

المحكوم عليه : وماذا تريد أن أصنع ؟...

الجلاد : افعل شيئًا !... قل شيئًا على الأقل !...

المحكوم عليه : وما شأني وهذا الموضوع ؟!...

الجلاد : يا لقلة الشهامة ، وسقوط الهمة !... تراها وقد رفعت في يدها النعل كما يرفع الحسام أو الصارم الصمصام ، ولا

نهب ، تتدافع عنى ؟!... تقف هكذا مكتوف اليدين !... تفرج بغير اكتراث !... وتصغى بدون اهتمام إلى إهانتى وتحقيرى وسبى !... ليس هذا والله من المروءة فى شىء !...

المحكوم عليه : حقًا !...

الخادمة : « تهز النعل بيدها » اسمع أيها الرجل !... دع هذا المسكين وشأنه !... واجهنى أنسا إذا كانت لديك الشجاعة !... حسابك معى أنا ... لقد أسأت أدبك معنا ، وعليك أن تقدم إلينا اعتذارًا وتطلب منـا الصفح ... وإلا فورب العزة صاحب الملكوت وواهب الجبروت ...

الجلاد : « فى رفق » مهلا !... مهلا !...

الخادمة : تكلم !... ما جوابك ؟...

الجلاد : التفاهم !...

الخادمة : اطلب الصفح أولا !...

الجلاد : إلى من أطلب الصفح ؟... إليك أنت ؟...

الخادمة : إلى مولاتى ...

الجلاد : أين هى ؟...

الغانية : « تظهر على عتبة دارها » ها أنذا !... أهو اعتذار ؟...

الخادمة : سيفعل يا سيدتى !...

الجلاد : نعم يا سيدتى !...

الغانية : حسن ... وأنا قبلت اعتذارك !...

الجلاد : فقط يا سيدتى .. ألا يحسن أن تعود المياه إلى مجاريها ؟...

الغانية : لقد عادت !...

الجلاد : أقصد عودة النبيذ إلى مجارى رأسى !...

الغانية : ماذا تعنى ؟...

الجلاد : أعنى أن هناك تلفًا يحتاج إلى إصلاح ... خادمتك النشيطة أخرجت ما كان فى رأسى من نشوة ، فمن ذا يملأ فراغ رأسى ؟!...

الغانية : أنا أتولى ملء رأسك !... خذ من الخمار على نفقتى ما شئت من شراب !...

الجلاد : شكرًا لك أيتها السيدة السخيّة !...

« يشير الجلاد إلى الخمار الواقف بباب حانه كى يأتى إليه بقدح .... »

المحكوم عليه : « للغانية » ألا تعرفيننى أيتها الجميلة ؟...

الغانية : بالضبط أعرفك ... منذ اللحظة الأولى ... ساعة أن جاءوا بك إلى هنا فى مطلع الليل ... أبصرتك من نافذتى وعرفتك ، وأحزننى أن أراك فى الأغلال ولكن ... ما هى الجريمة التى ارتكبتها ؟...

المحكوم عليه : لا شىء يذكر ... كل ما حدث أنى قلت ...

الجلاد : « يفطن إليه ويصيح به » حذار !... حذار !... أغلق فمك !...

المحكوم عليه : أغلقت فمى !...

الغانية : لقد حاكموك عليها ؟..

المحكوم عليه : لا ...

الغانية : ماذا تقول ؟... ألم تحاكم ؟!...

المحكوم عليه : ولم أقدم إلى محكمة ... لقد أرسلت مظلمة إلى السلطان ، أسأله حقى فى أن أمثل بين يدى قاضى القضاة ... أعدل من حكم بالذمة والضمير ، وأنزه من تمسك بالشرع ، وأخلص حام لقداسة القانون ... لكن ... ها هوذا الفجر يقترب ، والجلاد قد تلقى الأمر بضرب رقبتى عند أذان الفجر !...

الغانية : « متطلعة إلى السماء » الفجر ؟!... إن الفجر يكاد يبزغ ... انظر إلى السماء !...

الجلاد : « وفى يده قدح تلقاه من الخمار » ليست السماء يا سيدتى العزيزة هى التى ستقرر ساعة هذا المحكوم عليه ... ولكنها مئذنة هذا المسجد ... إنى فى انتظار المؤذن !...

الغانية : المؤذن ؟... إنه لا شك فى الطريق ... إنى أسهر حتى الصباح أحيانًا ، فأراه فى مثل هذه الساعة متجهًا إلى المسجد !...

المحكوم عليه : إذن قد حانت ساعتى !...

الغانية : لا ... ما دامت مظلمتك لم تفحص بعد !...

المحكوم عليه : هذا الجلاد لن ينتظر نتيجة المظلمة ... أليس كذلك أيها الجلاد ؟ ...

الجلاد : لن أنتظر سوى المؤذن ... تلك هى الأوامر !...

الغانية : أوامر مَن ؟... السلطان ؟...

الجلاد : تقريبًا !...

المحكوم عليه : « صائحًا » تقريبًا ؟!... ألم يكن إذن هو السلطان ؟!...

الجلاد : الوزير ... وأوامر الوزير هى أوامر السلطان !...

المحكوم عليه : إنى إذن ميت لا محالة !...

الجلاد : هو ذاك .. ما إن يصعد أذان المؤذن إلى السماء ، حتى تصعد روحك معه ... إن هذا ليحز فى نفسى أسى ، ويعتصر قلبى حزنًا ، ولكن العمل هو العمل ، والمهنة هى المهنة !..

الغانية : « ملتفتة إلى الطريق » يا للمصيبة !... ها هوذا المؤذن قد وصل !...

المحكوم عليه : قضى الأمر !..

« المؤذن يظهر .... »

الجلاد : أسرع أيها المؤذن ... نحن فى انتظارك !...

المؤذن : فى انتظارى ؟... لماذا ؟!...

الجلاد : لتؤذن الفجر !...

المؤذن : أتريد الصلاة ؟...

الجلاد : أريد أن أقوم بعملى !...

المؤذن : وما شأنى بعملك ؟...

الجلاد : عندما يصعد صوتك إلى السماء تصعد معه روح هذا الرجل !...

المؤذن : أعوذ بالله !...

الجلاد : تلك هى الأوامر !...

المؤذن : حياة هذا الرجل متعلقة بحبال صوتى ؟!...

الجلاد : نعم !...

المؤذن : لا حول ولا قوة إلا بالله !...

الجلاد : بادر أيها المؤذن إلى عملك حتى أقوم بعملى !...

الغانية : وفيم العجلة أيها الجلاد اللطيف ؟!... صوت المؤذن قد أثر فيه برد الليل ، وهو محتاج إلى شراب ساخن ... اصعد إلى دارى أيها المؤذن !... سأعد لك ما يصلح صوتك ...

الجلاد : والفجر ؟...

الغانية : الفجر بخير ، والمؤذن أدرى بوقته ...

الجلاد : وعملى ؟...

الغانية : عملك بخير ، ما دام المؤذن لم يؤذن بعد للفجر !...

الجلاد : أتوافق أيها المؤذن ؟...

الغانية : إنه موافق على دعوتى الصغيرة لوقت قصير ، فهو من خيرة معارفى فى الحى !...

الجلاد : والمصلون فى المسجد ؟...

المؤذن : ليس فى المسجد غير رجلين ... أحدهما غريب عن المدينة ، قد اتخذ المسجد مأوى ، والآخر متسول قد اعتصم به من برد الليل ... والكل يغط الآن فى نوم عميق ، وقلما استمع أحد إلى أذان الفجر فى هذا الشتاء !... ولا ينهض منهم إلا من ركلته بقدمى ليستيقظ ويؤدى الفريضة !...

الغانية : وأهل الحى أغلبهم من المسرفين ، وأكثرهم نؤوم

الضحى !...

الجلاد : قصدكما أن الفجر لن يؤذن له اليوم ؟!...

الغانية : قصدنا التأنى ، وفى التأنى السلامة . وفى العجلة الندامة !... لا تشغل بالك !... إن الفجر سيؤذن له فى حينه ، وأنت على كل حال فى مأمن ، ولا تبعة عليك ... المؤذن وحده هو المسئول ... هلم بنا أيها المؤذن !... فنجان من القهوة فيه لصوتك شفاء وصفاء !...

المؤذن : لا بأس بوقت قصير ، وفنجان صغير ...

« الغانية تدخل دارها بالمؤذن .... »

الجلاد : « للمحكوم عليه » أرأيت ؟!... بدلا من أن يصعد إلى المئذنة ، صعد إلى بيت الـ ... محترمة !!!... هذا هو المؤذن !...

المحكوم عليه : رجل شهم !... يخاطر بكل شيء !... أما أنت ؟!... أنت الذى لن يوجه إليه عتب ولا لوم ... أنت الآمن المطمئن بمثلك ... الخالى من التبعة ، المالك لحجتك ، تثور هكذا وتهتاج وترتاع ؟!... هدىء من روعك قليلا يا صديقى !... تجمل بالأناة والصبر !... وتوكل على الله !... اسمع !... لدى فكرة !... فكرة طيبة نيرة ... فيها لك تهدئة الخاطر ، ومتعة النفس ، وانشراح الصدر !... غن لى أغنيتك الرقيقة مرة أخرى !... بصوتك العذب الرخيم ، وأقسم لك أنى سأستمع إليها بقلب ينتفض حماسة وإعجابا ... هلم !... غن !... إنى

مصغ إليك بكل جوارحى !...

الجلاد : لم تعد بى رغبة !...

المحكوم عليه : لماذا ؟... ما الذى كدر صفوك ؟... ألأنك لم تطح برأسى ؟...

الجلاد : لأنى حدت عن واجبى !...

المحكوم عليه : واجبك هو تنفيذ الحكم عند أذان الفجر !... لكن من الذى يؤذن الفجر ؟... أنت ؟... أم المؤذن ؟...

الجلاد : المؤذن !...

المحكوم عليه : وهل فعل ؟...

الجلاد : لا ...

المحكوم عليه : إذن ... ما ذنبك أنت ؟...

الجلاد : حقًا ... لا ذنب لى ...

المحكوم عليه : هذا هو ما نقوله جميعًا !...

الجلاد : إنك تعزينى وتهوّن علىّ ...

المحكوم عليه : إنى أقول الحقيقة !...

الجلاد : « يلتفت إلى مشارف الطريق ويصيح » : ما هذه الجموع !!... يا لله ... إنه موكب الوزير !... إنه الوزير !...

المحكوم عليه : لا ترتعد هكذا !... هدىء من روعك !...

الجلاد : لا جناح علىّ ... إنى مغطى ... أليس كذلك ؟...

المحكوم عليه : اطمئن ... مغطى بألف دثار من الحجج والمعاذير !...

الجلاد : إنه المؤذن اللعين الذى سيؤدى الحساب العسير !..

« الوزير يظهر بين حراسه .... »

الوزير : « صائحًا « عجبًا !... ألم يعدم بعد هذا المجرم ؟...

الجلاد : نحن فى انتظار الفجر يا مولاى الوزير !... حسب أوامرك !...

الوزير : الفجر ؟!... إن الفجر قد صليناه فى مسجد القصر بحضور مولانا السلطان وقاضى القضاة !...

الجلاد : ليس الذنب ذنبى يا سيدى الوزير ... إن مؤذن هذا المسجد لم يصعد بعد إلى المئذنة !...

الوزير : كيف ذلك ؟!... هذا أمر لا يعقل !... أين هو هذا المؤذن ؟...

« المؤذن يخرج من باب الدار متسللا ، ومحاولا الاختفاء خلف الغانية وخادمتها ... »

الجلاد : « يلمحه ويصيح » ها هو !... ها هو ذا !...

الوزير : « للحراس » أحضروه !... « يحضرونه إليه » هل أنت مؤذن هذا المسجد ؟...

المؤذن : نعم يا مولاى الوزير !...

الوزير : لماذا لم تؤذن للفجر حتى الآن ؟...

المؤذن : من قال ذلك يا مولاى الوزير ؟... لقد أذنت الفجر منذ وقت مضى ...

الوزير : أذنت للفجر ؟...

المؤذن : فى موعده ... شأنى فى كل يوم ... وقد سمعنى من سمع ...

الغانية : حقًا ، لقد سمعناه كلنا يؤذن للفجر من فوق مئذنته ...

الخادمة : نعم ... اليوم ... كعادته فى كل الأيام فى مثل هذا الوقت !...

الوزير : ولكن هذا الجلاد يزعم ...

الثانية : هذا الجلاد كان مخمورًا ، وكان يغط فى النوم !...

الخادمة : وكان غطيطه يتصاعد إلينا ويوقظنا من لذيذ الرقاد !...

الوزير : « للجلاد المندهش » أهكذا تنفذ أوامرى !؟...

الجلاد : أقسم !... أقسم !... يا سيدى الوزير ...

الوزير : كفى !...

« الجلاد يعقد لسانه الذهول .... »

المحكوم عليه : أيها الوزير !... ألتمس إليك أن تصغى إلىّ : لقد بعثت إلى مولانا السلطان بظلامة ...

الجلاد : « يفطن ويصيح » أقسم يا سيدى الوزير أنى كنت منتبها ...

الوزير : قلت لك كفى !... « ثم يلتفت إلى المحكوم عليه » نعم ... ظلامتك علم بها مولانا السلطان ، وقد أمر أن تحاكم أمام قاضى القضاة ... وسيحضر مولانا السلطان بنفسه محاكمتك ... تلك رغبته الكريمة وأمره الذى لا يرد ... أيها الحراس !... أخلوا الساحة من الناس ، وليدخل كل داره ... إن هذه المحاكمة يجب أن تجرى فى نطاق السرية التامة ...

« الحراس يخلون الساحة من الناس .... »

الجلاد : يا مولاى الوزير !... « يحاول أن يشرح الأمر ولكن

الوزير يبعده بإشارة .... »

« السلطان يظهر فى موكبه ، وفى صحبته قاضى القضاة ...... »

المحكوم عليه : « صائحًا » يا مولانا السلطان !... العدل !... العدل !... ألتمس العدل !...

السلطان : أهذا هو المتهم ؟...

المحكوم عليه : يا مولانا السلطان !... إنى لم أرتكب ذنبًا ولا جرما !...

السلطان : صبرًا !...

المحكوم عليه : ولم أحاكم بعد ... لم أحاكم !...

السلطان : ستحاكم المحاكمة العادلة ... وفقًا لرغبتك ... وسيتولى محاكمتك قاضى القضاة فى حضرتنا !...

« يصدر السلطان إشارة إلى قاضى القضاة ليشرع فى المحاكمة ، ثم يجلس فى مقعد أعد له ويقف الوزير إلى جواره ... »

القاضى : « يجلس على مقعد له » فكوا قيود المتهم !... « يفك أحد الحراس أغلال المحكوم عليه » اقترب يا هذا !... ما هى جريمتك ؟...

المحكوم عليه : لم أرتكب جرمًا !...

القاضى : وما هو الاتهام المنسوب إليك ؟...

المحكوم عليه : سل الوزير عنه !...

القاضى : إنى أسألك أنت !...

المحكوم عليه : ما فعلت شيئًا قط سوى أنى لفظت كلمة بريئة ، لا خطر

فيها ولا ضرر !...

الوزير : إنها كلمة مروعة أثيمة !...

القاضي : « **للمحكوم عليه** » ما هي هذه الكلمة ؟

المحكوم عليه : لست أحب أن أعيدها ...

الوزير : الآن لا تحب ... أمسا في وسط السوق وبين جموع الناس ...

القاضي : ما هي هذه الكلمة ؟...

الوزير : قال إن مولانا السلطان النبيل العظيم إن هو إلا عبد رقيق ...

المحكوم عليه : كل الناس يعلم هذا ... وما هو بالأمر الخافي ...

الوزير : لا تقاطعني ... وزعم أنه هو النخاس الذي تولى بيع سلطاننا في صباه إلى السلطان الراحل !...

المحكوم عليه : هذا صحيح ... وأقسم بالأيمان المغلظة ... وإنها لوثيقة فخار لي أعتز بها أبد الدهر ...

السلطان : « **للمحكوم عليه** » أنت بعتني إلى السلطان الراحل ؟!

المحكوم عليه : نعم !...

السلطان : متى كان ذلك ؟...

المحكوم عليه : منذ خمس وعشرين سنة خلت يا مولاي ... كنتَ صبيًا صغيرًا في السادسة ، ضالا متروكا في قرية شركسية دهمها المغول ... وكنت غاية في الذكاء والحكمة أكثر مما ينبغي لسنك ... ففرحت بك وحملتك إلى سلطان هذه البلاد ، فمنحني ثمنًا لك ألف دينار ...

السلطان : « **صاخرًا** » ألف دينار ؟!... فقط ؟!...

المحكوم عليه : كنت تساوي أكثر من ذلك بالطبع ... ولكني كنت حديث عهد بالمهنة ... لم أكن قد جاوزت السادسة والعشرين ، وكانت تلك الصفقة هي بداية عملي ، وقد فتحت لي طريق المستقبل !...

السلطان : لك ولي !...

المحكوم عليه : حمدًا لله !...

السلطان : أهذا مما يستحق الموت ، أن تأتي بي إلى هذه البلاد ؟... إني أرى الأمر على النقيض ...

الوزير : إنه يستحق الموت لثرثرته وانفلات لسانه ...

السلطان : لست أرى ضررًا بالغًا في أن يقول أو يذيع أني كنت عبدًا رقيقًا ... السلطان الراحل نفسه كان كذلك ... أليس هذا صحيحًا أيها الوزير ؟...

الوزير : هذا صحيح ... ولكن ...

السلطان : أليس الأمر كذلك يا قاضي القضاة ؟...

القاضي : حقًا أيها السلطان !...

السلطان : إنها لأسرة برمتها من قدماء العبيد الأرقاء ، سلاطين المماليك ... الجميع جلبوا من نعومة أظفارهم إلى القصور ، حيث نشئوا التنشئة القوية القويمة ، ليصبحوا فيما بعد حكامًا وقادة للجيوش وسلاطين على البلاد ... وما أنا إلا واحد من هؤلاء ... لم أشذ عنهم ولم أختلف ...

المحكوم عليه : بل أنت من خيرهم حكمة وسدادًا ... أبقاك الله ذخرًا

لرعيتك !...

السلطان : ومع ذلك ... لست أذكر وجهك ... بل إنى لست أذكر بوضوح أيام طفولتى فى تلك القرية الشركسية التى تتحدث عنها وتقول إنك وجدتنى فيها ، كل ما أستطيع تذكره وتبينه هو : طفولتى بالقصر فى كنف السلطان الراحل ... لقد كان يعاملنى كأنى ابنه الحقيقى ؛ إذ لم تكن له ذرية ... وقد ربانى ونشأنى لأتولى الحكم ، وكنت أعلم حقًا علم اليقين أنه لم يكن أبى ...

المحكوم عليه : أبواك قتلا بيد المغول !...

السلطان : ما حدثنى أحد قط عن أبوى ... كنت أعلم فقط أنه قد جىء بى إلى القصر وأنا فى سن صغيرة ...

المحكوم عليه : وأنا الذى جاء بك !...

السلطان : ربما ...

المحكوم عليه : وإذن يا مولاى ... ما هى جريمتى ؟...

السلطان : لست والله أدرى ... سل من اتهمك !...

الوزير : أليست تلك هى جريمته الحقيقية ؟...

السلطان : أهناك جريمة حقيقية ؟...

الوزير : أجل يا مولاى ... القول بأنك كنت عبدًا رقيقًا ليس فيه حقًا ما يشين ولا ما يعيب ، كل السلاطين المماليك كانوا كذلك ... ليست هنا الجريمة ، ولكن السلطان المملوك كان يعتق عادة قبل جلوسه على العرش ...

السلطان : وبعد ؟...

الوزير : وبعد يا مولاى ... هذا الرجل يزعم أنك لم تعتق حتى الآن ... وأنك لم تزل رقيقًا ... وأن صفة العبودية ما تزال لاصقة بك ... وأن العبد لا يجوز له أن يحكم شعبًا حرًا ...

السلطان : « للمحكوم عليه » أقلت ذلك حقًا ؟!...

المحكوم عليه : لم أقل كل ذلك ؛ إنهم الناس فى السوق يحلو لهم دائمًا هذا النوع من اللغط والثرثرة ...

السلطان : ومن أين جاءك أنى لم أعتق ؟...

المحكوم عليه : لست أنا الذى قالها ... إنهم ينسبون إلىَّ كل قبيح من القول !...

السلطان : ولكنهم يثرثرون ويلغطون على كل حال !...

المحكوم عليه : لست أنا !...

السلطان : أنت أو غيرك ... لم يعد هذا يهم ... المهم الآن هو أن يعلم الناس جميعًا فى كل مكان أن تلك محض أكذوبة ... أليس الأمر كذلك يا قاضى القضاة ؟...

القاضى : الواقع يا مولاى ...

السلطان : هذا محض زور وبهتان ... هذا محض اختلاق لا يستقيم معه عقل ولا منطق ... لم أعتق بعد ؟... أنا ؟!... أنا الذى كان قائدًا للجيوش وقاهرًا للمغول ... الذراع الأيمن للسلطان الراحل ، والخلف الذى أعده ليحكم من بعده ... كل هذا وما فكر السلطان قبل وفاته فى عتقى ؟!... أهذا معقول ؟... اسمع أيها القاضى !... ما

عليك الآن إلا أن تطلق المنادين يعلنون في المدينة التكذيب الرسمي ، وينشرون على الناس نص الوثيقة المسجلة بعتقي ، وهي ، ولا شك ، محفوظة في خزائنك ... أليس كذلك ؟!...

القاضي : « يمشط لحيته بأصابعه » تقول يا مولاى ...

السلطان : ألم تسمع ما قلت ؟...

القاضي : بل إني ...

السلطان : كنت مشغولا بمداعبة لحيتك بأصابعك !...

القاضي : يا مولاى السلطان !...

السلطان : ماذا ؟... مولاك السلطان يكلمك بلغة بسيطة واضحة ، لا تحتاج إلى طويل تأمل ، ولا عميق تفكير ... كل ما في الأمر هو أنه قد أصبح من الضروري إعلان تلك الوثيقة ... أفهمت ؟...

القاضي : نعم ...

السلطان : مازلت تداعب لحيتك بأصابعك ؟... هلا تركتها وشأنها الآن قليلا ؟!...

الوزير : « يتدخل » مولاى !... أتأذن لي في أن ...

السلطان : ماذا بك ؟... أنت أيضا ؟...

الوزير : إني أسأل مولاى السلطان أن ...

السلطان : ما كل هذا الارتباك ؟!... أنت وهو على السواء ...

القاضي : يحسن تأجيل هذه المحاكمة إلى وقت آخر ... فإذا صرنا على انفراد يا مولاى ...

الوزير : نعم ... هذا هو الأفضل !...

السلطان : بدأت أدرك ...

« يأمر الوزير بإشارة منه أن يبتعد الجميع بالمحكوم عليه ...... »

السلطان : ها نحن قد صرنا على انفراد ... ماذا لديكم من القول !... وإن كنت أرى على سحنتيكما ما يوحي ويفصح ...

القاضي : أجل يا مولاى ... لقد أدركت بفطنتك ... في الواقع لا توجد وثيقة عتق لك في خزائني ...

السلطان : لعلك لم تتسلمها بعد ، ولكنها لا بد أن تكون موجودة في مكان ما ... أليس كذلك أيها الوزير ؟!...

الوزير : في الحقيقة يا مولاى ...

السلطان : ماذا ؟!...

الوزير : الحقيقة أنه ...

السلطان : تكلم !...

الوزير : ما من وثيقة هناك تثبت عتقك يا مولاى !...

السلطان : ماذا تقول ؟...

الوزير : لقد سقط السلطان الراحل فجأة على أثر أزمة في القلب ، وتوفاه الله قبل أن يعتقك ...

السلطان : ما هذا الذي تزعمه أيها الشقي ؟!...

الوزير : إني شقي حقا يا مولاى ... ومجرم أثيم ... هذا مالا أنكر ... كان من واجبي تدبر هذا الأمر في حينه ... لكن موضوع العتق هذا لم يخطر لي على بال ... كان رأسي ممتلئا

بأمور أخرى جسام.لقد كنت أنت يا مولاى وقتئذ بعيدًا ... فى حومة القتال ... ولم يكن أحد غيرى قائمًا قرب فراش السلطان الذى يحتضر ... لقد نسيت هذا الموضوع تحت وطأة الموقف وجلال الحدث ، وشدة الأسى ... وما كان شىء يشغلنى فى تلك اللحظة إلا تأدية اليمين — بين يدى المحتضر — أن أخدمك يا مولاى بعين الإخلاص الذى خدمته به طول حياته ...

السلطان : حقًا ... هأنذا قد خدمتنى !...

الوزير : إنى مستحق للموت ... أعرف ذلك : فهذا جرم لا يغتفر .. إن السلطان الراحل ما كان يستطيع أن يفكر فى كل شىء ، أو يتذكر كل شىء ، إنه لمن صميم عمل أنا أن أفكر له ، وأن أذكره بالخطير من الأمور ... كان من واجبى أنا حقًا أن أعرض عليه موضوع العتق ، بما له من أهمية خاصة ، وأن أعد ما يقتضيه من إجراءات شرعية ... ولكن مقامك العالى يا مولاى ونفوذك وهيبتك ومنزلتك العظيمة فى النفوس ، كل تلك الصفات فى سموها جعلتنا نسهو عن حالة الرق والعبودية بالنسبة إليك ، ومن حاجة من كان فى مثل ارتفاعك إلى مثل هذه الحجج والوثائق ... ما فطنت والله لهذا الأمر إلا فيما بعد ... عندما جلست يا مولاى على العرش ... عندئذ اتضح لى الموقف بأكمله ... وتملكنى الهلع وكدت أجن ... لولا أنى هدأت من روعى ، وتماسكت معللا النفس بأن هذا الموضوع لن يتاح له يوما

أن يفتح أو يثار ...

السلطان : ها هو ذا قد فتح وأثير !...

الوزير : واأسفاه !... ما كان لى أن أعلم أن رجلا مثل هذا سيأتى يوما يثرثر ويلغط ...

السلطان : ولهذا أردت أن تغلق فمه بإسلامه إلى الجلاد !...

الوزير : نعم ...

السلطان : وتدفن غلطتك بدفن هذا الرجل ...

الوزير : « مطرقًا » نعم ...

السلطان : وما فائدة ذلك الآن ... والجميع يثرثرون ويلغطون ...

الوزير : إذا قطع رأس هذا الرجل ، وعلق فى الساحة أمام الناس فما من لسان بعدئذ يجرؤ على الكلام !...

السلطان : أتظن ...؟

الوزير : إن لم يستطع السيف قطع الألسنة فماذا يستطيع إذن ...؟

القاضى : أتأذن لى يا مولاى بكلمة ؟...

السلطان : إنى مصغ ...

القاضى : إن السيف قاطع حقاً للألسنة والرءوس ... ولكنه ليس بقاطع فى المشاكل والمسائل ...

السلطان : ماذا تعنى ؟...

القاضى : أعنى أن المسألة ستظل دائمًا قائمة ... وهى أن السلطان يحكم دون أن يعتق ، وأنه عبد رقيق على شعب حر طليق !!...

الوزير : ومن يجرؤ على قول هذا ؟... إن من يجرؤ يقطع رأسه !...

القاضى : تلك مسألة أخرى !...

الوزير : ليس من الضرورى لمن يحكم أن يحمل فى يديه الوثائق والحجج !... لدينا أروع مثل وأقواه فى الأسرة الفاطمية ... وكلنا يذكر ما فعل « **المعز لدين الله الفاطمى** » !... يوم جاء يزعم أنه من نسل رسول الله ﷺ ، وأنه بهذا النسب له حق الحكم فى أرض مصر ؛ فلما لم يصدقه الناس قام فيهم شاهرًا سيفه ، وفاتحًا صناديق ذهبه ، وهو يقول : هذا حسبى ... وهذا نسبى !... فسكت الناس ، وحكم هو وذريته من بعد هادئين هاتين الأجيال الطويلة !...

السلطان : ما تقول فى هذا أيها القاضى ؟...

القاضى : أقول : إن هذا صحيح من الوجهة التاريخية ... ولكن ...

السلطان : ولكن ماذا ؟...

القاضى : تريد إذن أيها السلطان العظيم أن تحل مشكلتك بهذه الطريقة !...

السلطان : ولم لا ؟!...

الوزير : حقًا !... ولم لا !... ما من شىء أيسر من هذا ، وبخاصة فى مسألتنا هذه ... يكفى أن نعلن على الملأ أن مولانا السلطان قد أعتق عتقًا شرعيًا ... أعتقه السلطان الراحل قبل وفاته ... وأن الوثائق والحجج مسجلة ومحفوظة لدى قاضى القضاة ، والموت لمن يجرؤ على تكذيب ذلك !...

القاضى : هنالك شخص سوف يكذب ذلك ...

الوزير : من هو ؟...

القاضى : أنا ...

السلطان : أنت ؟!...

القاضى : نعم ... أنا يا مولاى ... إنى لا أستطيع أن أشترك فى هذه المؤامرة !...

الوزير : إنها ليست مؤامرة ... إنها حيلة لإنقاذ الموقف ...

القاضى : إنها مؤامرة ضد القانون الذى أمثله ...

السلطان : القانون ؟!...

القاضى : نعم أيها السلطان ... القانون ... أنت فى نظر الشرع والقانون لست سوى عبد رقيق ... والعبد الرقيق يعتبر — قانونًا وشرعًا — شيئًا من الأشياء ومتاعًا من الأمتعة ... وبما أن السلطان الراحل المالك لرقبتك لم يعتقك قبل وفاته ، فأنت لم تزل شيئًا من الأشياء ومتاعًا مملوكًا لآخر ؛ وعلى هذا فأنت فاقد لأهلية التعاقد فى المعاملات العادية التى يزاولها بقية الناس الأحرار ...

السلطان : أهذا هو القانون ؟!...

القاضى : نعم !...

الوزير : مهلا يا قاضى القضاة !... نحن الآن لسنا فى صدد رأى القانون ، ولكنا فى صدد البحث عن الطريقة التى نتخلص بها من هذا القانون ... وطريقة التخلص هى فى افتراض أن العتق قد وقع وتم ، وما دام الأمر سرًا بيننا نحن الثلاثة ، وما من أحد سوانا يعرف الحقيقة ؛ فمن الميسور أن نحمل الناس على تصديق ...

القاضى : الأكذوبة ...

الوزير : قل الحل ... هذا اللفظ أليق وأنسب !...

القاضى : الحل بواسطة الكذب ...

الوزير : وما الضرر فى هذا ؟...

القاضى : بالنسبة إليكما ما من ضرر ...

الوزير : وبالنسبة إليك ...

القاضى : بالنسبة إلىّ الأمر يختلف ... فأنا لا أستطيع أن أكذب على نفسى ، ولا أستطيع التخلص من القانون وأنا الذى أمثله .. ولا أستطيع الحنث بيمين عاهدت فيها نفسى على أن أكون الخادم الأمين للشرع والقانون !...

السلطان : عاهدت فيها نفسك أمامى ...

القاضى : وأمام الله وضميرى ...

السلطان : معنى ذلك أنك لن تسير معنا ...

القاضى : فى هذا الطريق ... لا ...

السلطان : ولن تضع يدك فى أيدينا ...

القاضى : على هذه الخطة ... لا ...

السلطان : إذن ... تستطيع فى هذه الحالة أن تنحى نفسك جانبًا ... ولا تتدخل فى شىء ، وتتركنا نحن نفعل ما نشاء ... بهذا تصون يمينك وترضى ضميرك ...

القاضى : إنى آسف يا مولاى السلطان ...

السلطان : لماذا ؟...

القاضى : لأنى الآن — وقد علمت أنك فى نظر القانون فاقد لأهلية

التعاقد — أرانى مضطرًا إلى الحكم ببطــلان كل تصرفاتك ...

السلطان : إنك مجنون ... هذا مستحيل !...

القاضى : لا أستطيع ، مع الأسف ، أن أصنع غير ذلك ، ما لم ...

السلطان : ما لم ؟...

القاضى : ما لم تأمر بعزلى من منصبى ، أو طردى من البلاد ... أو قطع رأسى !... بهذا أتحلل من يمينى ، وتنطلق أنت على هواك تفعل ما تشاء !...

السلطان : أهو تهديد ؟!...

القاضى : بل هو حل ...

الوزير : إنك تعقد لنا المشكلة يا قاضى القضاة !...

السلطان : بدأت أضيق بهذا الرجل !...

الوزير : إنه يعلم أننا فى قبضته ؛ إذ أن أقل عنف معه يفضح كل شىء أمام الشعب !...

السلطان : « للقاضى » خلاصة القول : إنك لا تريد معاونتنا ...

القاضى : بل إن ما أتمناه يا مولاى هو أن أكون لك معينًا ... ولكن ليس على هذا الوجه ...

السلطان : ماذا تقترح إذن ؟...

القاضى : تطبيق القانون ...

السلطان : إذا طبقت أنت القانون فقدت أنا عرشى ...

القاضى : ليس هذا فقط !...

السلطان : أهناك ما هو أسوأ ؟!...

القاضى : نعم ...

السلطان : ماذا هناك أيضًا ؟!...

القاضى : باعتبارك فى نظر القانون متاعا مملوكا للسلطان الراحل ، فقد أصبحت جزءًا من ميراثه ، وبما أنه توفى عن غير وريث فقد آلت تركته إلى بيت المال ... وعلى هذا فأنت الآن متاع من الأمتعة المملوكة لبيت المال ... متاع عقيم ، لا يدر ربحًا ... ولا يأتى بغلة ، وإنى بصفتى أيضًا خازنًا لبيت المال ، أقول إنه قد جرت العادة فى مثل هذه الأحوال على التخلص من المتاع العقيم ببيعه فى المزاد ، حتى لا تضار مصلحة بيت المال ، وحتى ينتفع بحصيلة البيع فيما يعود على الناس عامة والفقراء خاصة بالنفع !...

السلطان : متاع عقيم ؟!... أنا ؟!...

القاضى : إنى أتكلم بالطبع من الوجهة الشرعية ...

السلطان : حتى الآن لم أتلق منك حلولا ... إنما أتلقى إهانات !...

القاضى : إهانات ؟!... عفوًا أيها السلطان العظيم !... إنك لتعلم حق العلم كم أبجلك وأكبرك ، وفى أى مكان مرتفع أضعك ... وإنك لتذكر — ولا ريب — أنى منذ اللحظة الأولى كنت أول من بادر إلى مبايعتك والمناداة بك سلطانًا آمرًا على بلادنا ... إن ما أفعله الآن إن هو إلا عرض صريح للموقف ، من وجهة نظر الشرع والقانون ...

السلطان : خلاصة الموقف إذن هى أنى شيء ومتاع ، ولست رجلا ولا إنسانًا !...

القاضى : نعم !...

السلطان : وأن هذا الشيء أو المتاع مملوك لبيت المال ؟!...

القاضى : حقيقة !...

السلطان : وأن بيت المال يتصرف فيما يملك من متاع لا غلة له ، بعرضه للبيع فى المزاد ، للمصلحة العامة !...

القاضى : تمامًا ...

السلطان : يا قاضى القضاة !... ألا ترى معى أن كل هذا عجيب وغريب ؟!...

القاضى : حقًا ... ولكن ...

السلطان : وأن كل هذا فيه كثير من الغلو والمبالغة والإغراق !...

القاضى : ربما ... ولكن باعتبارى قاضيًا فإن الذى يهمنى هو مركز الوقائع بالنسبة إلى نصوص القانون ...

السلطان : اسمع أيها القاضى !... قانونك هذا لم يأتنى بالحل ، فى حين أن حركة صغيرة من سيفى كفيلة بأن تقطع عقدة المشكلة فى الحال !...

القاضى : إذن ... افعل !...

السلطان : سأفعل ... ماذا يهم سفك قليل من الدم فى سبيل صلاح الحكم ؟!...

القاضى : يجب البدء عندئذ بسفك دمى !...

السلطان : سأفعل كل ما أراه ضروريًا لصيانة أمن الدولة ، وسأبدأ فعلا بك ... وألقى بك فى السجن ... أيها الوزير !... اقبض على القاضى !..

الوزير : يا مولاى السلطان ، إنك لم تستمع بعد إلى جوابه عن سؤالك ...

السلطان : أى سؤال ؟...

الوزير : السؤال عن الحل الذى يراه للمشكلة ...

السلطان : لقد أجاب عن هذا السؤال ...

الوزير : إن ما قاله لم يكن هو الحل إنما هو عرض للموقف ...

السلطان : أصحيح هذا أيها القاضى ؟...

القاضى : نعم ...

السلطان : لديك حل إذن لمشكلتنا هذه ؟...

القاضى : « بنفس النبرة » نعم !...

السلطان : إذن ... تكلم !... ما هو الحل ؟...

القاضى : لا يوجد غير حل واحد ...

السلطان : قل !... ما هو ؟...

القاضى : تطبيق القانون ...

السلطان : أيضًا ؟!... مرة أخرى ؟!...

القاضى : نعم ... مرة أخرى ... ودائمًا ... إذ لست أرى حلا آخر غير هذا ...

السلطان : أسمعت أيها الوزير ؟... هل يخامرك بعد ذلك أمل فى التعاون مع هذا الشيخ الخرف العنيد ؟!...

الوزير : اسمح لى يا مولاى أن أستجوبه قليلا !...

السلطان : افعل ما شئت !...

الوزير : يا قاضى القضاة !... المسألة دقيقة ، ونحتاج منك إلى أن

تشرح لنا بتفصيل ووضوح وجهة نظرك ...

القاضى : وجهة نظرى واضحة بسيطة ، أشرحها فى كلمتين : لحل هذه المسألة أمامنا طريقان : طريق السيف ، وطريق القانون ، أما السيف فلا شأن لى به ، وأما القانون فهو ما ينبغى لى وما أستطيع أن أفتى فيه ... والقانون يقول : إن العبد الرقيق لا يملك عتقه غير مولاه . مالك رقبته ... وفى حالتنا هذه المولى مالك الرقبة توفى بغير وريث ، فآلت ملكية العبد إلى بيت المال ، وبيت المال لا يملك عتقه بغير مقابل ؛ إذ ليس من حق أحد التصرف بغير مقابل فى مال أو متاع مملوك للدولة ... ولكن من الجائز لبيت المال التصرف بالبيع ، وبيع مال الدولة لا يكون صحيحًا قانونا إلا بمزاد مطروح فى العلن ... فالحل الشرعى إذن هو أن تطرح مولانا السلطان للبيع فى المزاد العلنى ، ومن رسا عليه المزاد يعتقه بعد ذلك .. بهذا لا يضار ولا يغبن بيت المال فى ملكه ، ويظفر السلطان عن طريق القانون بعتقه وتحريره !...

السلطان : « للوزير » سمعت هذا ؟!...

الوزير : « للقاضى » تطرح مولانا السلطان العظيم للبيع فى المزاد العلنى ؟!... إن هذا هو الجنون بعينه !...

القاضى : هذا هو الحل القانونى الشرعى !...

السلطان : « للوزير » لا تضيع وقتًا !... لم يبق من رد على هذا الأحمق الوقح إلا الإطاحة برأسه ، ولتكن النتيجة ما تكون !...

وأنا الذى سيفعل ذلك بيده ... « **يستل سيفه** »

القاضى : إنه لشرف عظيم لى يا مولاى أن أموت بيدك ، وأن تذهب روحى فى سبيل الحق والمبدأ !...

الوزير : صبرًا يا مولاى صبرًا !... لا تصنع من هذا الرجل شهيدًا ... ما من ميتة أروع من هذه يتمناها مثل هذا الشيخ المهدم !... سوف يقال إنك حطمت القانون والشرع فيه ... وسوف يصبح هو الرمز الحى لروح الحق والمبدأ ... ورُب شهيد مجيد له من التأثير والنفوذ فى ضمير الشعوب ما ليس لملك جبار من الملوك !...

السلطان : « **يكظم** » لعنة الله ...

الوزير : لا تدله هذا المجد يا مولاى على حساب الموقف !...

السلطان : وما العمل إذن ؟... إن هذا الرجل يضعنا فى مأزق ... ويخيرنى بين أمرين ، كلاهما مر : القانون الذى يظهرنى ضعيفًا ويصيرنى أضحوكة ، أو السيف الذى يصمنى بالوحشية ويجعلنى بغيضًا !...

الوزير : « **يتجه إلى القاضى** » يا قاضى القضاة !... كن لينا ميسرًا ... ولا تكن صلبًا معسرًا !... قف معنا فى منتصف الطريق ، وأوجد لنا حلا وسطًا ، واجتهد معنا فى البحث عن مخرج معقول !...

القاضى : ما من مخرج معقول سوى القانون ...

الوزير : نطرح السلطان للبيع فى المزاد ؟!...

القاضى : نعم !...

الوزير : والذى يرسو عليه المزاد ويشتريه ؟...

القاضى : يعتقه فى الحال ... فى مجلس العقد ... هذا هو الشرط ؟!...

الوزير : ومن ذا الذى يقبل أن يخسر ماله على هذا النحو ؟!...

القاضى : كثيرون ... أولئك الذين يفتدون حرية السلطان بأموالهم !...

الوزير : إذن ... لماذا لا نقوم نحن بأداء هذا الواجب ... أنا وأنت ... ونفتدى سلطاننا بأموالنا الخاصة سرًا ... ونفوز نحن بهذا الشرف ؟!... أليست فكرة صائبة ؟!...

القاضى : كلا مع الأسف ... سرًا لا يجوز ... القانون صريح ... إنه ينص على أن كل بيع لأملاك بيت المال يجب أن يتم علنًا ، وفى مزاد عام !...

السلطان : « **للوزير** » لا تتعب نفسك معه !... إنه مُصر على فضيحتنا !...

الوزير : « **للقاضى** » وأخيرًا يا قاضى القضاة ؟... أما من حيلة تخرجنا من هذه الورطة !...

القاضى : حيلة ؟!... لست أنا الذى يطلب إليه البحث عن الحيل !...

السلطان : بالطبع !... هذا الرجل لا يبحث إلا عما فيه تحدينا وإذلالنا !...

القاضى : لست أنا بشخصى يا مولاى !... إن شخصى الضعيف لا شأن له فى الأمر كله !... ولو كان الأمر بيدى وتعلقًا

برغبتي لما كان أحب إليّ من أن أخرجكم من هذا الموقف على خير ما تشتهون !...

السلطان : يا للضعيف المسكين !... الأمر ليس بيده ... بيد مَنْ إذن ؟...

القاضي : القانون ...

السلطان : نعم هذا الشبح الذي تختفي وراءه لتخضعني ، وتفرض عليّ إرادتك ، وتظهرني أمام الناس في هذا المظهر المضحك الواهن المهين !...

القاضي : بل لتظهر بمظهر الحاكم المجيد !...

السلطان : أترى من علامات المجد أن يعامل سلطان معاملة السلعة والمتاع ، ويباع في الأسواق ؟!...

القاضي : إنها لمن علامات المجد فعلا يا مولاي أن يخضع سلطان للقانون كما يخضع له بقية الناس ...

الوزير : إنه لجميل حقًا يا قاضي القضاة أن يطيع الحاكم القانون كما يطيعه المحكوم ... ولكن في هذا مجازفة كبرى ... إن سياسة الحكم لها أساليبها ، وحكم الناس يتطلب وسائل أخرى ...

القاضي : إني لا أفقه شيئًا في السياسة ، ولا في مهنة حكم الناس !...

السلطان : إنها مهنتنا نحن ... دعنا إذن نمارسها بوسائلنا الخاصة !...

القاضي : إني لم أغل يديك يا مولاي ... إن لك مطلق الحرية في أن

تمارس حكمك كما تشاء !...

السلطان : حسن !... إني أرى الآن ما يجب عليّ فعله !...

الوزير : ماذا أنت صانع يا مولاي ؟...

السلطان : انظر إلى الشيخ !... أتراه يحمل سيفًا في منطقته ؟... كلا بالطبع ... إنه لا يحمل غير لسان في فمه يديره بكلمات وعبارات ، وإنه ليحسن استخدام ما يملك بحذق وبراعة ، ولكني أنا أحمل هذا !... « يشير إلى سيفه » وهو ليس من خشب ، ولا هو لعبة من اللعب !... إنه سيف حقيقي ، وينبغي أن يصلح لشيء ، ويجب أن يكون لوجوده سبب ... أتفهمون كلامي ؟!... أجيبوا !... لماذا قدر لي أن أحمل هذا ؟!... ألزينة أم للعمل ؟!...

الوزير : للعمل !...

السلطان : وأنت أيها القاضي ... لماذا لا تجيب ؟... أجب !... أهو للزينة أم للعمل ؟!...

القاضي : لأحدهما ...

السلطان : ماذا تقول ؟...

القاضي : أقول لهذا أو لذاك !...

السلطان : ماذا تعني ؟...

القاضي : أعني أن لك الخيار يا مولاي السلطان ... لك أن تجعله للعمل ، ولك أن تجعله للزينة ... إني معترف بما للسيف من قوة أكيدة ، ومن فعل سريع وأثر حاسم ، ولكن السيف يعطي الحق للأقوى ، ومن يدري غدًا من يكون

الأقوى ؟... فقد يبرز من الأقوياء من ترجح كفته عليك !... أما القانون فهو يحمى حقوقك من كل عدوان ، لأنه لا يعترف بالأقوى ... إنه يعترف بالأحق !... والآن فما عليك يا مولاى سوى الاختيار : بين السيف الذى يفرضك ولكنه يعرضك وبين القانون الذى يتحداك ولكنه يحميك !...

السلطان : « مفكرًا لحظة » السيف الذى يفرضنى ويعرضنى ، والقانون الذى يتحدانى ويحمينى ؟!...

القاضى : نعم ...

السلطان : ما هذا الكلام ؟!...

القاضى : الحقيقة الصريحة ...

السلطان : « يفكر مرددًا » السيف الذى يفرض ويعرض ؟!... والقانون الذى يتحدى ويحمى ؟!...

القاضى : نعم يا مولاى !...

السلطان : « للوزير » يا لهذا الشيخ اللعين !... إن له عبقرية نادرة فى أن يوقعنا دائمًا فى الحيرة !...

القاضى : إنى ما صنعت يا مولاى غير أن طرحت عليك وجهى المسألة ، وعليك أنت الاختيار !...

السلطان : الاختيـــار ؟!... الاختيـــار ؟!... ما رأيك أنت يا وزير ؟!...

الوزير : أنت الذى يبت فى هذا يا مولاى !...

السلطان : إنك لا تعرف أنت أيضًا ، فيما أرى ؟!...

الوزير : فى الواقع يا مولاى ، إن ...

السلطان : إن الاختيار صعب ؟!...

الوزير : حقًا ...

السلطان : السيف الذى يفرضنى على الجميع ، ولكنه يعرضنى للخطر ... أو القانون الذى يتحدى رغباتى ولكنه يحمى حقوقى !...

الوزير : نعم ...

السلطان : اختر لى أنت !...

الوزير : أنا ؟!... لا ... لا يا مولاى !...

السلطان : مم تخاف ؟...

الوزير : من العواقب ... عواقب هذا الاختيار ... إذا اتضح يومًا أنى اخترت الطريق الخطأ !... ويا لها يومئذ من كارثة !...

السلطان : لا تريد تحمل التبعة ؟!...

الوزير : لست أجرؤ ... وليس من حقى !...

السلطان : لا بد من البت فى النهاية ...

الوزير : ما من أحد غيرك يا مولاى يملك حق البت فى مثل هذا الأمر ...

السلطان : حقًا ... ما من أحد غيرى !... ولن أستطيع التهرب من ذلك ... أنا الذى يجب عليه أن يختار ، ويتحمل تبعة الاختيار !...

الوزير : أنت مولانا وحاكمنا !...

السلطان : نعم ، وتلك ساعتى المخيفة !... الساعة المخيفة لكل

حاكم !... ساعة يصدر القرار الأخير ، القرار الذى يغير مجرى الأمور !... ساعة ينطق بذلك اللفظ الصغير ، الذى يبت فى الاختيار الحاسم !... الاختيار الذى يقرر المصير !...

« **يفكر مليًا ، وهو يقطع المكان جيئة وذهابًا ، والكل ينتظر نطقه ... والصمت يخيم لحظة ......** »

السلطان : « **وهو مطرق فى تفكيره** » السيف أم القانون ؟!... القانون أم السيف ؟!..

الوزير : إنى مقدر يا مولاى دقة موقفك !...

السلطان : ولا تريد مع ذلك أن تعيننى برأى ؟!...

الوزير : لا أستطيع ... أنت فى هذا الموقف صاحب الرأى وحدك !...

السلطان : لا مفر إذن من أن أقرر بنفسى !...

الوزير : هو ذاك ...

السلطان : السيف أم القانون ؟!.. القانون أم السيف ؟!... « **يفكر لحظة ، ثم يرفع رأسه بقوة** » حسن ... لقد قررت ...

الوزير : أوامرك يا مولاى !...

السلطان : قررت أن أختار ... أن أختار ...

الوزير : ماذا يا مولاى ؟...

السلطان : « **صائحًا فى عزم** » القانون !... اخترت القانون !...

« **ستار** »

الفصل الثانى

« **عين الساحة ... وقد أخذ الحراس ينظمون صفوف الشعب حول منصة أقيمت فى المكان ... حان الخمار مغلق ، وقد وقف يتحدث إلى الإسكاف المنهمك فى عمله بباب حانوته المفتوح ......** »

* * *

الخمار : عجبى لك أيها الإسكاف !... تفتح حانوتك وتعمل ، والحوانيت كلها اليوم مغلقة ، كما تغلق فى يوم العيد !...

الإسكاف : ولماذا أغلق أنا ؟!... ألأنهم يبيعون السلطان ؟!...

الخمار : يا أحمق !... لكى تشاهد أعجب فرجة فى الدنيا !...

الإسكاف : أستطيع أن أشاهد من هنا كل ما يجرى وأنا أعمل ...

الخمار : أنت حر ... أما أنا فقد أغلقت حانى ، حتى لا تفوتنى أقل حركة من هذا المشهد العجيب !...

الإسكاف : غلطة كبرى منك يا صديقى !... إن اليوم هو الفرصة السانحة لاجتذاب الزبائن ... ليس فى كل الأيام تظفر بمثل هذه الجموع المحتشدة أمام حانك !... وما من شك فى أن كثيرين اليوم سيقتلهم العطش ، ويشتاقون إلى قطرة من شرابك !...

الحمار : أتظن ذلك ؟!...

الإسكاف : هذا شيء بديهي !... انظر !... هأنذا مثلا قد عرضت اليوم أفخر نعالي !... « **يشير إلى نعاله التي بباب حانوته** ... »

الحمار : يا عزيزي الإسكاف إن من جاء اليوم للشراء إنما جاء ليشتري السلطان ، لا ليشتري نعالك ؟!...

الإسكاف : ولم لا ؟... قد يوجد بين الناس من هم أحوج إلى شراء نعالي !...

الحمار : اسكت ولا ترد !... يبدو أنك لا ترى ما يجري في هذا الحادث ، ولا تدرك أنه حادث فريد !... أترى في كل يوم يعرض سلطان للبيع !...

الإسكاف : اسمع يا صديقي !... وأقولها لك صراحة : لو أن معي من النقود ما يكفي لشراء السلطان فإني والله ما أشتريه !...

الحمار : لا تشتريه ؟!...

الإسكاف : أبدًا !...

الحمار : اسمح لي أقول : إنك أحمق !...

الإسكاف : بل إني عاقل فطن ... قل لي أنت بربك ماذا تريد مني أن أصنع بسلطان في حانوتي ؟!... هل أستطيع أن أعلمه صنعتي هذه ؟!... بالطبع لا ... هل أستطيع أن أكلفه عملا ما ؟!... من المؤكد لا ... إذن ... أنا الذي سيعمل دائمًا ويضاعف عمله لأطعمه وأعوله

وأخدمه !... هذا وربي ما سيحدث !... سأشتري عبئًا على كاهلي ، ومتاعًا من أمتعة الترف ، لا قبل لي بتحمله ... إن مواردي يا صاح لا تسمح لي باقتناء التحف !...

الحمار : يا للبلاهة !...

الإسكاف : وأنت ؟!... أكنت تشتريه ؟...

الحمار : وهل في هذا شك ؟...

الإسكاف : ماذا تصنع به ؟!...

الحمار : أشياء كثيرة ... كثيرة جدًا يا صديقي !... إن مجرد وجوده في حانتي كفيل باجتذاب المدينة كلها ... يكفي أن أطلب إليه أن يقص على زبائني كل ليلة أخبار معاركه ضد المغول وطرائفه وأسفاره ومخاطراته ، وما رأى من بلاد ، وما دخل من ديار ، وما اجتاز من قفار ... أليس كل هذا مفيدًا وممتعًا ؟!...

الإسكاف : حقًا تستطيع أنت أن تستخدمه في هذا ... أما أنا ...

الحمار : أنت أيضًا تستطيع مثل ذلك ...

الإسكاف : كيف ؟!... إنه لا يعرف شيئًا في رتق الأحذية ، وصنع النعال حتى يتحدث عنها ...

الحمار : ليس من الضروري أن يتحدث عندك !...

الإسكاف : ماذا يفعل إذن ؟...

الحمار : لو كنت في مكانك فإني أعرف كيف أستخدمه ...

الإسكاف : كيف ؟... أخبرني !...

الحمار : أجلسه أمام باب الحانوت على مقعد مريح ، وألبسه حذاءين جديدين، وأضع فوق رأسه لوحة كتبت عليها هذه العبارة : « هنا تباع أحذية السلطان » وسوف ترى فى الغد أهل المدينة وقد تدفقوا على حانوتك يطلبون بضاعتك !...

الإسكاف : يا لها من فكرة ؟!...

الحمار : أليس كذلك ؟!...

الإسكاف : عقلك بدأ يعجبنى !...

الحمار : ما تقول إذن ، لو فكرنا فى شرائه معًا ، وجعلناه شركة بيننا ؟!... أنا أتخلى لك عنه نهارًا ، وأنت تدعه لى ليلا ؟!...

الإسكاف : حلم جميل !... لكن جميع ما نملك من مال — أنا وأنت — لا يكفى لشراء إصبع من أصابعه !...

الحمار : حقًا !...

الإسكاف : انظر !... ها هى ذى جموع الناس أخذت تفد وتحتشد !...

« الجموع من رجال ونساء وأطفال تتجمع وتلغط بالكلام فيما بينها ... »

الرجل الأول : « **لرجل آخر** » أهنا هنا يبيعون السلطان ؟!...

الرجل الثانى : نعم ... ألا ترى الحراس ؟!...

الرجل الأول : لو كان معى مال ؟!...

الرجل الثانى : صه !... إن هذا للأغنياء !...

طفل : « **لأمه** » أماه !... أهذا هو السلطان ؟!...

الأم : « **لطفلها** » لا يا بنى !... هذا أحد الحراس !...

الطفل : وأين هو السلطان إذن ؟!...

الأم : لم يحضر بعد !...

الطفل : وهل للسلطان سيف ؟!...

الأم : نعم سيف كبير !...

الطفل : وهل سيبيعونه هنا ؟!...

الأم : نعم يا بنى !...

الطفل : متى يا أماه ؟!...

الأم : عما قليل ...

الطفل : أماه !... اشتريه لى !...

الأم : ماذا ؟...

الطفل : السلطان !... اشترى لى السلطان !...

الأم : اسكت !... إنه ليس لعبة تلعب بها !...

الطفل : إنك قلت إنهم سيبيعونه هنا ... اشتريه لى إذن !...

الأم : يا بنى اسكت !... هذا ليس لمثلك !...

الطفل : لمن إذن ؟... للكبار ؟!...

الأم : نعم ... هذا للكبار ...

« تفتح النافذة بمنزل الغانية ، وتطل الخادم ...... »

الخادمة : « **منادية** » يا حمار !... يا صاحب الخان !!... أتغلق حانك اليوم ؟!...

الحمار : نعم ... أوَ لم أحسن صنعًا ؟!... ومولاتك ؟... أين

هي ؟... ألم تزل بعد في فراشها ؟...

الخادمة : بل لقد خرجت من الحمام لتتزين !...

الخمار : لقد كانت بارعة !... ونفعت حيلتها مع الجلاد !...

الخادمة : صه !... إنه هناك ... أراه بين الجمع ... ها هو ذا قد لمحنا !...

الجلاد : « مقبلا على الخمار » لعنة الله عليك وعلى خمرك !...

الخمار : لماذا ؟... أي ذنب جناه خمري ليستحق لعنتك ؟!... أليس هو الذي أدخل على نفسك السرور تلك الليلة ، وحمسك للغناء ، وجعلك ترى كل شيء من حولك صافيًا رائقًا !...

الجلاد : « في نبرة غيظ » صافيًا رائقًا ؟!... حقًا ... رأيت كل شيء تلك الليلة صافيًا رائقًا ؟!...

الخمار : بالتأكيد ... أوتشك في ذلك ؟...

الجلاد : اسكت ولا تذكرني بتلك الليلة ...

الخمار : سكتُّ ... قل لي : هل أنت اليوم في عطلة ؟...

الجلاد : نعم ...

الخمار : وصاحبك المحكوم عليه ؟...

الجلاد : صدر العفو عنه ...

الخمار : وأنت بالطبع ... ما سألك أحد عن حكاية الفجر ... إياها !!...

الجلاد : لا ...

الخمار : كل شيء إذن قد انتهى على خير ...

الجلاد : نعم ... ولكني لا أحب أن يستغلني أحد ، أو يلعب بعقلي ...

الخادمة : حتى وإن كان في ذلك إنقاذ لرأس رجل ؟...

الجلاد : اخرسي يا لئيمة ... أنت وسيدتك ...

الخادمة : أنعود إلى سبابنا في يوم كهذا ...

الخمار : « للجلاد » لا تعكر مزاجك !... سأقدم إليك هذا المساء قدحًا كبيرًا من جيد الخمر ، دون مقابل ...

الجلاد : دون مقابل ؟!...

الخمار : نعم ... هدية مني ، في نخب ...

الجلاد : في نخب مَنْ ؟...

الخمار : « يلمح المؤذن مقبلا » في نخب المؤذن الشجاع !...

الجلاد : هذا الكذاب الأشر ؟!...

المؤذن : كذاب ؟... أنا ؟!...

الجلاد : نعم ... تزعم أني كنت نائمًا أغط تلك الساعة ؟...

المؤذن : وكنت مخمورًا !...

الجلاد : أنا واثق كل الثقة أني كنت متنبها يقظًا ... ولم أنم لحظة تلك الساعة !...

المؤذن : ما دمت واثقًا من ذلك كل الثقة ...

الجلاد : نعم ... ما كنت قط نائمًا تلك الساعة !...

المؤذن : حسن !...

الجلاد : توافق على هذا ؟...

المؤذن : نعم !...

الجلاد : إذن أنت كنت تكذب ؟...

المؤذن : لا ...

الجلاد : كنت نائمًا أنا إذن ؟...

المؤذن : نعم !...

الجلاد : كيف تقول نعم ؟!...

المؤذن : لا !...

الجلاد : اثبت على قول !... أهو نعم أم لا ؟...

المؤذن : ماذا تريد أنت ؟...

الجلاد : أريد أن أعرف هل كنت نائمًا تلك الساعة أو أنى كنت مستيقظًا ؟!...

المؤذن : وماذا يهمك ؟... ما دام كل شيء قد مر بسلام ... صاحبك المحكوم عليه قد صدر العفو عنه ، وأنت ما سألك أحد فى شيء ... وأنا ما حدثنى أحد فى شأن ذلك الفجر !... والأمر بالنسبة إلينا جميعًا قد انتهى على خير ما نرجو ، فلم نبش الماضى ؟...

الجلاد : نعم ... ولكن الأمر لم يزل يقلقنى منذ ذلك اليوم ... إنى لم أبصر بعد الموقف جليًا واضحًا !... أريد أن أعرف هل كنت أنا حقًا نائمًا تلك اللحظة ، وهل أذنت أنت للفجر حقيقة دون أن أفطن ؟!... يجب أن تفضى إلىّ بواقع الأمر فى النهاية . وأنت تعرف الحقيقة كلها دون ريب ... أخبرنى عما حدث بالضبط تلك اللحظة ؟!... إنى كنت ثملا قليلا وقتئذ حقًا ... ولكن ...

المؤذن : ما دام الأمر يشغل بالك إلى هذا الحد ، فلماذا أريحك وأشفيك ؟!... إنى أفضل تركك هكذا تشوى على نار الشك وتتقلب !...

الجلاد : تقلبت فى نار جهنم أيها المؤذن الخسيس !...

المؤذن : « صائحًا » انظر ! .. موكب السلطان قد أقبل ! ..

« يظهر الموكب وعلى رأسه السلطان ، يتبعه قاضى القضاة والوزير والنخاس المحكوم عليه ، ويتجهون إلى المنصة ، حيث يجلسون السلطان على مقعد فى الوسط ، يحف به الجميع ويقوم إلى جانبه النخاس ليواجه الناس »

الخمار : « للجلاد » عجبًا !... هذا صاحبك المحكوم عليه ... ماذا جاء به هناك ، إلى جوار السلطان ؟!...

الجلاد : « ناظرًا إليه » حقًا ... هو والله بعينه !...

المؤذن : لا شك أنه هو المكلف بإجراء البيع ، أليس نخاسًا من كبار النخاسين ؟!...

الخمار : أرأيت أيها الجلاد ؟!... لم تكن نجاته إذن من يدك سدى !...

الجلاد : يا للعجب !... ها هو ذا يبيع نفس السلطان مرتين ... مرة فى صغره ، ومرة الآن فى كبره !...

المؤذن : صه !... إنه يتأهب للكلام !...

النخاس : « مصفقًا بيديه » السكوت أيها الناس !... أعلن إليكم أنى بصفتى نخاسًا ودلالا ، كلفت مباشرة هذا البيع فى المزاد العلنى ؛ لمصلحة بيت المال ، وإنه ليشرفنى بادئ ذى بدء

أن يفتتح قاضي القضاة هذا الإجراء بكلمة يوضح فيها شروط هذا البيع ... الكلمة الآن لقاضي قضاتنا الموقر !...

القاضي : أيها الناس !... إن البيع المطروح أمامكم ليس ككل بيع ... إن له صفة خاصة ... وقد سبق أن أعلن ذلك إليكم ... فهذا البيع يجب أن يقترن به عقد آخر ، هو عقد العتق ، بمعنى أن المشترى الذى يرسو عليه المزاد لا يجوز له الاحتفاظ بما اشترى ... إنما عليه إجراء العتق فى مجلس العقد ... أى مجلسنا هذا ، ولا حاجة بى أن أذكركم بنص القانون الذى يمنع موظفى الدولة ورجالها من الاشتراك فى بيع ما للدولة ... أما وقد قلت لكم هذا فإن الكلمة الآن للوزير كى يحدثكم عن الطابع القومى لهذا الإجراء ...

الإسكاف : « همسًا للخمار » أسمعت ؟!... لا يجوز للمشترى الاحتفاظ بما اشترى ؟!... معنى هذا الإلقاء بالنقود فى البحر !...

الخمار : « هامسًا » سنرى الآن من المعتوه الذى سيتقدم !...

النخاس : « صائحًا » سكوتًا !... سكوتًا !...

الوزير : أيها القوم الأعزاء !... إنكم تحضرون اليوم حدثًا فذًا ضخمًا ، من أخطر الأحداث فى تاريخنا : سلطان مجيد يطلب حريته ، فيلجأ إلى شعبه بدلا من أن يلجأ إلى سيفه ، هذا السيف البتار الجبار الذى انتصر به فى معارك المغول ، كان يستطيع أن ينتصر به أيضًا فى نيل حريته وتحرير

رقبته ... ولكن سلطاننا المظفر العادل قد اختار أن يخضع للقانون ... كما يخضع له أضعف فرد فى رعيته ، وها هوذا يلتمس حريته بالطريق الذى نص عليه القانون ... فمن شاء منكم أن يفتدى حرية سلطانه المحبوب فليتقدم إلى هذا المزاد ، ومن دفع منكم أغلى ثمن فقد عمل عملا صالحا للوطن ، سيذكر له على مدى الأيام ومر الزمن !...

« هتاف من الشعب ...... »

صوت : « يرتفع من بين الشعب » فليحى السلطان !...

صوت آخر : فليحى القانون !...

النخاس : السكوت أيها الناس !...

الوزير : « مستأنفًا » والآن وقد علمتم أيها القوم الأعزاء ما تنتظره منكم بلادكم من تضحية قليلة ، وفداء يسير ، فى سبيل هذا الهدف السامى النبيل : وهو تحرير سلطانكم بأموالكم ، وذهاب هذه الأموال إلى بيت المال ؛ ليصرف منه على الفقراء والمعوزين ... الآن وقد جاء إليكم سلطانكم المحبوب المفدى لتتنافسوا فى تقديره وتحريره ، فإنى أعلن بدء الإجراءات ...

« يشير إلى النخاس بالشروع فى العمل ، بينما تهتف الجماهير ...... »

النخاس : سكوتًا !... سكوتًا !... يا أهل هذه المدينة !... لقد فتح المزاد ... ولن ألجأ إلى تلك الأوصاف والنعوت التى يلجأ إليها عادة فى الأسواق للتحلية والترغيب ، فموضوع هذا

البيع هو فوق كل وصف ونعت وتعليق ، ولا مبالغة ولا إغراق إذا قيل إنه يساوى وزنه ذهبًا ... إلا أن المقصود ليس التعسير ولا الإعجاز ، إنما التيسير عليكم بتقدير ما هو فى الإمكان ... لذلك أبدأ المزاد بمبلغ صغير ضئيل بالنسبة إلى سلطان : عشرة آلاف دينار !...

« لغط بين الجماهير ...... »

الإسكاف : « للخمار » عشرة آلاف ؟!... فقط ؟!... يا للثمن البخس !... انظر إلى هذه الياقوتة الكبيرة فى عمامته !... إنها وحدها والله تساوى مائة ألف دينار ...

الخمار : حقًا ... إنه لمبلغ تافه !... خاصة وهو يدفع فى سبيل هدف وطنى نبيل !... عشرة آلاف دينار ؟!... إن هذا لا يليق !... إنى مواطن مخلص ولا يرضينى هذا ... « يصيح » أحد عشر ألف دينار !...

النخاس : أحد عشر ألف دينار !... أحد عشر ؟!...

الإسكاف : « للخمار » أحد عشر ألف دينار فقط ؟!... أهذا كل ما عندك ؟!... إذن فأنا أقول ... « يصيح » اثنا عشر ألف دينار !...

النخاس : اثنا عشر ألف دينار !... اثنا عشر ...

الخمار : « للإسكاف » أتزايد أنت علىّ أنا ؟!... إذن فأنا أقول ... ثلاثة عشر ألف دينار ...

النخاس : ثلاثة عشر ألف دينار ... ثلاثة عشر ...

« رجل مجهول يتقدم فجأة وهو يشق طريقًا بين

الجموع ...... »

المجهول : خمسة عشر ألف دينار !...

الإسكاف : يا للهول !... من يكون هذا الرجل ؟!...

الخمار : شخص ماجن من طرازك ولا شك !...

الإسكاف : ومن طرازك أنت أيضًا !...

النخاس : خمسة عشر ألف دينـــار ... خمسة عشر ... خمسة عشر ...

الإسكاف : « صائحًا » ستة عشر ألف دينار !...

النخاس : « صائحًا » ستة عشر ألف دينار ... ستة عشر ...

المجهول : ثمانية عشر ألف دينار !...

الإسكاف : « للخمار » دفعة واحدة !... إن هذا الرجل قد بالغ وأسرف !...

النخاس : ثمانية عشر ألف دينار ... ثمانية عشر ...

الخمار : « يمعن النظر إلى المجهول » يخيل إلىّ أنى رأيت هذا الرجل فى مكان ما !... نعم ... إنه هو ... أحد الموسرين ... يختلف إلى حانى من حين إلى حين ويشرب قدحًا قبل أن يصعد إلى تلك الغانية !...

الإسكاف : « ملتفتًا إلى نافذتها » انظـــر ... ها هى ذى فى نافذتها !... تبرق فى أتم زينة وبهرج ؛ كأنها عروس من الحلوى !... « يصيح بها » : أنت أيتها المليحة فى عليائك !... ألست مواطنة مخلصة أنت الأخرى ؟!...

الغانية : اخرس أيها الإسكاف !... إنى لست ممن يهزل فى مثل هذا

المظرف !... والله إن لم تكف لأبلغن عنك ، وعندئذ توضع فى الحبس !...

النخاس : « مرددًا » ثمانية عشر ألف دينار ... بمبلغ ثمانية عشر ....

« أحد الأعيان يتقدم إلى المنصة ...... »

العين : « صائحًا » تسعة عشر ألف دينار !...

المجهول : « مزايدًا » عليّ بعشرين ألف دينار !...

النخاس : عشرين ألف دينار ... عشرين ألف دينار !... عشرين !...

العين : عليّ بواحد وعشرين ألف دينار !...

المجهول : باثنين وعشرين ألف دينار !...

« عين ثان من الأعيان يتقدم .... »

العين الثانى : بثلاثة وعشرين ألف دينار !...

النخاس : بثلاثة وعشرين ... بثلاثة وعشرين ...

المجهول : خمسة وعشرين !...

النخاس : خمسة وعشرين ألف دينار ... خمسة وعشرين !...

« عين ثالث من الأعيان يتقدم ..... »

العين الثالث : ستة وعشرين !...

النخاس : « صائحًا » ستة وعشرين ألف دينار !... ستة وعشرين !...

المجهول : ثمانية وعشرين !...

النخاس : « يصيح » ثمانية وعشرين ... ثمانية وعشرين ألف

دينار !...

العين الثالث : تسعة وعشرين ...

الإسكاف : « هامسًا للخمار » أجادُّون هم فى كل هذا ؟... هؤلاء ؟! ...

الخمار : الظاهر !...

النخاس : تسعة وعشرين ... تسعة وعشرين ألف دينار !... تسعة وعشرين !...

المجهول : « صائحًا » ثلاثين !... عليّ بثلاثين ألف دينار !...

النخاس : ثلاثين !... بمبلغ ثلاثين !... ثلاثين ألف دينار !...

الإسكاف : « هامسا » ثلاثين ألف دينار يلقى بها فى البحر !... يا للجنون !...

النخاس : « صائحًا بأعلى صوته » ثلاثين ألف دينار !... ثلاثين ألفًا ... أما من مُزايد ؟... لا أحد ؟!... لا أحد يزايد على ثلاثين ألف دينار ؟!... أهذا هو كل ما يعرض ثمنًا لسلطاننا العظيم ؟!...

السلطان : « للوزير » هذا هو الحد الأقصى للتقدير الوطنى النبيل !...

الوزير : يا مولاى !... إن الحاضرين هنا للمزايدة هم فى الأغلب من بخلاء التجار والموسرين ، ممن ركبت فيهم طبيعة الشح ، والرغبة فى الربح ، والضن بالمال فى سبيل هدف أسمى !...

النخاس : « صائحًا » ثلاثين ألف دينار !... مرة أخرى أقول : من يزايد ؟... من يزايد ؟... لا أحد ؟... لا ؟... لا ؟...

« النخاس يتبادل النظرات مع **الوزير** » سأكررها ثلاثًا :
واحد ... اثنان ... ثلاثة !... انتهى !... رسا المزاد على
ثلاثين ألف دينار !...

« **هتاف من الجماهير** .... »

الحمار : « **للإسكاف** » إنه زوق الذى رسا عليه المزاد !...

النخاس : تقدم أيها الفائز !... وتقبل التهنئة على حظك السعيد !...

« **الجماهير تهتف له** ...... »

الوزير : أهنئك أيها المواطن الصالح وأحييك « **هتاف من الجماهير** »

النخاس : « **صائحًا** » السكوت !... السكوت !...

الوزير : « **مستطردًا** » أحييك أيها المواطن الصالح باسم الوطن وباسم هذا الشعب المخلص الأمين الذى نبعث منه ، لتشترى وتفتدى حرية سلطاننا المعظم !... إن عملك النبيل هذا سوف ينقش أبد الدهر على صفحات تاريخ هذه الأمة الكريمة !...

« **هتاف من الجماهير** ...... »

النخاس : « **صائحًا** » سكوتًا !... « **يلتفت إلى المجهول** » أيها المواطن الصالح ... إن المبلغ معد ... أليس كذلك ؟!...

المجهول : **بدون شك** ... إن أكياس الذهب على قاب خطوتين !...

النخاس : حسن ... انتظر إذن ما يأمر به قاضى قضاتنا الموقر !...

القاضى : « **يعلن** » قضى فى المسألة ... ونفذ حكم القانون ...

وحلت المشكلة ... اقترب أيها المواطن الصالح !... هل تستطيع التوقيع بإمضائك ؟!...

المجهول : نعم يا مولاى القاضى !...

القاضى : وقع إذن على هذه الحجج !...

المجهول : سمعًا وطاعة يا مولانا القاضى !...

القاضى : « **يقدم إليه وثيقة** » هنا ... وقع هنا !...

المجهول : « **يقرأ قبل أن يوقع** » ما هذا ؟... ما هذا ؟...

القاضى : هذا عقد البيع ...

المجهول : نعم ... أوقع ... « **يوقع بإمضائه على الوثيقة** »

القاضى : وهذه أيضًا ... « **يقدم إليه الوثيقة الثانية** »

المجهول : هذه ؟... ما هذه ؟!...

القاضى : هذه حجة العتق !...

المجهول : « **يتراجع خطوة** » إنى آسف !...

القاضى : « **وقد فوجئ** » ماذا تقول ؟!...

المجهول : لا أستطيع التوقيع على هذه الحجة ...

القاضى : كيف ؟... ما هذا الذى تقول ؟!...

المجهول : **أقول** إنه ليس فى يدى ...

القاضى : ليس فى يدك ماذا ؟...

المجهول : التوقيع على حجة العتق ...

القاضى : « **فى ذهول** » ليس فى يدك التوقيع ؟...

المجهول : لا ... ليس فى يدى ولا سلطتى ...

القاضى : ما معنى هذا ؟... ماذا تعنى بهذا ؟!... أنت مجنون ولا

ريب ... إنه لواجب محتم عليك أن توقع حجة العتق ... هذا هو الشرط ... الشرط الأساسى لكل هذا الإجراء ...

المجهول : مع الأسف الشديد لست أملك هذا ... إن هذا فوق إمكانى ، وخارج حدود صفتى !...

الوزير : ماذا يقول هذا الرجل ؟!...

القاضى : لست أفهم ...

الوزير : « للمجهول » لماذا ترفض التوقيع على حجة العتق ؟!...

المجهول : لأنه لم يؤذن لى فى ذلك !...

الوزير : لم يؤذن لك ؟...

المجهول : « مؤكدا برأسه » لم يؤذن لى ، ولم أفوض إلا فى المزايدة وعقد الشراء ... أما خارج هذا النطاق فلا تفويض عندى ...

القاضى : تفويض ؟!... تفويض ممن ؟!...

المجهول : من الشخص الذى وكلنى عنه ...

القاضى : أنت وكيل عن شخص آخر ؟...

المجهول : نعم يا مولاى القاضى !...

القاضى : مَن هو هذا الشخص ؟!...

المجهول : لا أستطيع الجواب !...

القاضى : بل يجب أن تجيب ...

المجهول : لا ... لا أستطيع ...

الوزير : أنت مرغم إرغامًا أن تذكر لنا الشخص الذى وكلك عنه فى التوقيع على عقد البيع !...

المجهول : لا أستطيع الإفضاء باسمه ؟...

الوزير : لماذا ؟...

المجهول : لأنى أقسمت قسما لا حنث فيه أن أحفظ اسمه سرًا ...

الوزير : ولماذا يحرص موكلك على أن يبقى اسمه سرًا ؟...

المجهول : لا أدرى ...

الوزير : إنه يملك مالا كثيرًا بالطبع ، ما دام فى مقدوره إنفاق مثل هذا المبلغ الجسيم دفعة واحدة ؟!...

المجهول : هذه الثلاثون ألفا من الدنانير هى كل ما ادخر فى حياته ...

الوزير : وفوضك فى أن تضعها كلها فى هذا المزاد ؟...

المجهول : نعم !...

الوزير : إن هذا لهو الكرم بعينه ... بل هو عين النبل فى الشعور ... لكن ... لماذا يخفى اسمه ؟... أهو التواضع ؟... أهى الرغبة الأكيدة فى أن يبقى إحسانه مستورًا ، وعمله الصالح مجهولا ؟...

المجهول : ربما ...

القاضى : فى هذه الحالة كان ينبغى أن يأذن لوكيله فى توقيع حجة العتق كذلك ...

المجهول : لا ... إنه لم يوكلنى عنه إلا فى عقد الشراء فقط !...

القاضى : هذا هو دليل سوء النية ...

الوزير : حقًا !...

السلطان : « فى نبرة سخرية » يظهر أن المسألة قد تعقدت !...

القاضى : قليلا يا مولاى !...

الوزير : لا بد لهذا الرجل من أن يتكلم !... وإلا فإنى سأرغمه على

الكلام إرغاما ...

القاضي : مهلا أيها الوزير ... مهلا ... إنه سيتكلم من تلقاء نفسه وسيجيبه برفق على أسئلتي !... اسمع أيها الرجل الطيب !... موكلك هذا ماذا يصنع ؟...

المجهول : لا يصنع شيئًا ...

القاضي : أليست له مهنة ؟...

المجهول : يزعمون ذلك !...

القاضي : يزعمون أن له مهنة ، ولكنه لا يصنع شيئًا ؟!...

المجهول : هو ذاك !...

المجهول : إنه إذن موظف ؟...

المجهول : لا ؟! ...

القاضي : إنه غني ؟...

المجهول : بعض الشيء ...

القاضي : وأنت المتولي إدارة شئونه ؟...

المجهول : تقريبًا !...

القاضي : أهو من الأعيان ؟...

المجهول : خير من ذلك !...

القاضي : كيف ذلك ؟...

المجهول : الأعيان يزورونه ، ولكنه لا يعنى بزيارتهم !...

القاضي : إنه وزير إذن ؟...

المجهول : لا ...

القاضي : أله نفوذ ؟...

المجهول : نعم ... على معارفه !...

القاضي : أله كثير من المعارف ؟...

المجهول : نعم !... كثير !...

القاضي : « يفكر في صمت وهو يمشط لحيته بأصابعه » نعم ... نعم ...

السلطان : وأخيرًا أيها القاضي ؟!... أوجدت حلا لهذه الألغاز ؟!... أم أننا سننفق وقتنا الآن في ألعاب الألغاز والأحاجي ؟!...

الوزير : « نافد الصبر » يجب أن نلجأ إلى العنف يا مولانا السلطان !... ليس أمامنا إلا هذا .. إن ذلك الشخص المحجب بالأسرار ، الذي يخفي اسمه ويقتحم هذا المزاد على هذه الصورة ، لا بد أنه يدبر في رأسه أمرًا مريبًا وخطة خطرة .. بعد إذنك يا مولاي ... سأتصرف في الأمر ... « يصيح بالحراس » اذهبوا بهذا الرجل إلى التعذيب ، إلى أن يفضي إليكم باسم موكله وغرضه !...

المجهول : « صارخًا » لا .. لا .. لا .. لا ترسلوني إلى التعذيب !... بربكم !... لا تعذيب ... أتوسل إليكم !...

الوزير : تكلم إذن !...

المجهول : إني أقسمت ...

الوزير : « للحراس » اذهبوا به !...

« الحراس يحيطون به .... »

المجهول : « يصرخ » لا ... لا ... لا ...

« يفتح باب دار الغانية ، وتظهر هي وتتقدم إلى المنصة »

تتبعها خادمتها وجواريها يحملن الأكياس ... »

الغانية : اتركوه !... اتركوه !... أنا موكلته ... وإليك أكياس الذهب ... ثلاثون ألف دينار نقدًا وعدًا !...

« هرج ومرج بين الجماهير ... »

النخاس : « صائحًا » سكوتًا !... السكوت !...

الوزير : من هذه المرأة ؟...

الجموع : « **صائحة** » العاهرة التي أمامنا ! ...

الوزير : عاهرة !...

الجموع : نعم ... عاهرة مشهورة في الحي !...

السلطان : مرحى !... ختامه مسك !...

الوزير : أنت أيتها المرأة !... أنت التي ؟...

الغانية : أنا التي فوّضت هذا الرجل في المزايدة لحسابها ... « **ملتفتة إلى الرجل المجهول** » أليس كذلك ؟...

المجهول : هي الحقيقة يا مولاي ...

الوزير : أنت تجرئين على شراء مولانا ؟!...

الغانية : ولم لا ؟... ألست مواطنة ومعي نقود ؟!... فلم لا يكون لي عين الحق الذي للآخرين !...

القاضي : نعـــم ... لك هذا الحق ... إن القانـــون يسري على الجميع ... على أنه يجب عليك أيضًا أن تكوني على علم بشروط هذا البيع ...

الغانية : هذا طبيعي ... إني أعلم أنه بيع ...

القاضي : بيع له صفة خاصة ...

الغانية : بيع بالمزاد العلني ...

القاضي : نعم ... ولكن ...

الوزير : إنه قبل كل شيء عمل وطني ... وأنت مواطنة يهمك خير الوطن ، فيما أظن ...

الغانية : بدون شك !...

الوزير : إذن وعي هذه الحجة !...

الغانية : ماذا جاء في هذه الحجة ؟...

الوزير : العتق ...

الغانية : ماذا يعني هذا ؟...

الوزير : ألا تعرفين ما هو معنى العتق ؟...

الغانية : أمعناه أن أتخلى عما في يدي ؟!...

الوزير : نعم !...

الغانية : أتخلى عن المتاع الذي اشتريته في المزاد !...

الوزير : هو ذاك ...

الغانية : لا ... لا أريد التخلي عنه ...

السلطان : جميل !...

الوزير : ستتخلين عنه أيتها المرأة !...

الغانية : لا ...

الوزير : لا ترغميني على أن أكون عنيفًا ... إنك تعلمين أني أستطيع أن أرغمك ...

الغانية : بأية وسيلة ...

الوزير : « **مشيرًا إلى سيفه** » بهذا ...

السلطان : تلجأ إلى السيف الآن ؟!... لقد فات الأوان !...

الوزير : إنها يجب أن تذعن !...

الغانية : إني أذعن أيها الوزير ... أذعن للقانون ... أليس بمقتضى القانون أني وقعت مع الدولة عقد بيع ؟... أهذا القانون محترم أم غير محترم ؟!...

السلطان : أجب يا قاضي القضاة !...

القاضي : حقًا أيتها المرأة ... لقد وقعت عقد بيع ، ولكنه عقد مشروط ...

الغانية : يعني !...

القاضي : يعني أنه بيع معلق على شرط ...

الغانية : أي شرط !...

القاضي : العتق ... وإلا فالبيع نفسه يصبح باطلًا !...

الغانية : تعني أيها القاضي أنه لكي يصبح البيع صحيحًا يجب أن أوقع العتق ...

القاضي : نعم ...

الغانية : وتعني كذلك أنه يجب أن أوقع العتق حتى يصبح الشراء نافذًا !...

القاضي : تمامًا !...

الغانية : لكن يا مولاي القاضي ما هو الشراء ... أليس هو امتلاك شيء في نظير ثمن ؟...

القاضي : هو هذا ...

الغانية : وما هو العتق ؟!... أليس هو عكس الامتلاك ؟... إنه

التخلي عن الأملاك ...

القاضي : نعم !...

الغانية : إذن أيها القاضي أنت تجعل العتق شرطًا للامتلاك ... أي أنه لكي يكون امتلاك الشيء المبيع صحيحًا يجب على المشتري أن يتخلى عن هذا الشيء ...

القاضي : ماذا ؟... ماذا ؟...

الغانية : بعبارة أخرى لكي تملك شيئًا يجب أن تتخلى عنه ...

القاضي : كيف تقولين لكي تملك يجب أن تتخلى ؟...

الغانية : أو إذا شئت ... لكي تملك يجب ألا تملك ...

القاضي : ما هذا الكلام ؟...

الغانية : هذا هو شرطك ... لكي أشتري يجب أن أعتق ... لكي أملك يجب ألا أملك !... أترى هذا معقولًا ؟!...

السلطان : معها حق ... لا عقل ولا منطق يقبل هذا ...

القاضي : من علمك ذلك أيتها المرأة ... ما من ريب في أنه فقيه من فقهاء القانون ، قادر ماجن فاجر هو الذي لقنها هذا الذي تقول ...

السلطان : وماذا يهم !... هذا لن يغير من الأمر شيئًا ... هنا هو قانونك أيها القاضي !... أرأيت ؟!... مع القانون ... هناك دائمًا حجة تقارع حجة ، وكلها لا تخلو من المعقول والمنطق ...

القاضي : ولكن هذه مغالطة !... هذه سفسطة ... إن ما تقوله هذه المرأة ليس إلا سفسطة !...

السلطان : شرطك هو السفسطة ... فالبيع هو البيع .. هذا شيء بديهي ... أما الباقي فلا يلزم أحدًا ...

القاضي : أجل يا مولاي ... ولكن هذه المرأة قد تقدمت إلى المزاد ، وهي على بينة من طبيعته ، وتعلم تمام العلم ما ينطوي عليه من معنى وهدف ، فتصرفها بعد ذلك على هذا النحو إن هو إلا خديعة وغش وتحايل !...

السلطان : إذا كنت تريد الآن أن تلقنها درسًا في الأخلاق ، فهذا شأنك .. أما القانون فلم يعد له هنا محل ... وعليك أن تكف عن التحدث باسمه ...

القاضي : بل من واجبي يا مولاي أن أحمي القانون من هذه المخلوقات التي تعبث به وتهزأ !...

الغانية : أرجو منك أيها القاضي ألا تهينني !...

القاضي : وأنت أيتها المرأة ... ألا تستحين ؟!... ألا تخجلين من تصرفك هذا ؟!...

الغانية : أخجل وأستحي ؟!... لماذا ؟!... لأني اشتريت شيئًا تبيعه الدولة ؟... لأني رفضت أن ينهب مني ما اشتريت وأن أسلب ما دفعت فيه الثمن الغالي ؟... هاكم أكياس الذهب ، عدوا ما لكم واقبضوه !...

القاضي : إني أرفض مالك ... وعليه فإني أبطل هذا العقد ...

الغانية : لأي سبب تبطله ؟...

القاضي : لأنك امرأة سيئة السمعة رديئة السيرة ، ولعل هذا المال قد جاء من طريق الخطيئة ، فكيف يمكن قبوله فيما يدفع لبيت

المال والدولة ؟...

الغانية : إن مالي هذا قد قبل بالفعل فيما يدفع من ضرائب ومكوس ، فهل الضرائب والمكوس ليست مما يدفع لبيت المال والدولة ؟!... إذا كان هذا رأيك أيها القاضي فلن أدفع بعد اليوم ضريبة واحدة للدولة ...

السلطان : اقبل مالها أيها القاضي ... إن هذا أبسط وأسلم !...

القاضي : إذن أنت تصرين على موقفك أيتها المرأة ؟!!...

الغانية : بدون شك ... إني لست أمزح بهذه الأكياس من الذهب ... إني أدفع لأشتري ... وأشتري لأمتلك ... والقانون يعطيني هذا الحق ... البيع هو البيع ... والملكية هي الملكية ... اقبضوا حقكم وسلموني حقي !...

الوزير : كيف تريدين أن نسلمك السلطان أيتها المرأة ؟...

الغانية : ولماذا إذن عرضتم سلطان البلد للبيع ؟...

السلطان : كلامها منطقي هذه المرأة !...

الغانية : أنا أجيب ؛ لأن الجواب بسيط : عرضتموه للبيع كي يشتريه أحد من الناس ... وهأنذي قد اشتريته ورسا عليّ المزاد !... علنا أمام الجميع ... وها هوذا الثمن المطلوب ... ولم يبق عليكم إلا تسليمي البضاعة المشتراه !...

السلطان : البضاعة !؟...

الغانية : نعم ... وإني أطلب تسليمها في المنزل ...

السلطان : أي منزل ؟...

الغانية : منزلي بالطبع ... هذا ... هذا المنزل المواجه ...

السلطان : « للقاضي » أتسمع ؟!...

القاضي : لم تعد هناك فائدة ولا نفع في مناقشة امرأة من هذا الصنف !... يا مولاي قد نفضت يدي !...

السلطان : ولعم الحل يا قاضي القضاة !... تغرسني في هذا الوحل وتمضي أنت تنفض يدك !...

القاضي : إني معترف بإخفاقي ... ما كنت أعلم أني سأواجه مثل هذا الطراز من الناس !...

السلطان : وإذن ؟!...

القاضي : عاقبني يا مولاي !... إني مستحق لأفظع العقاب ، على سوء نصحي وقصر نظري !... مُر بقطع رأسي !...

السلطان : وما فائدة قطع رأسك ؟!... إن رأسك وهو على كتفيك قد رماني في هذه الورطة ، فهل رأسك المقطوع هو الذي سيخرجني منها ؟!...

الوزير : دع الأمر لي يا مولاي !... الآن أرى جليًا ما ينبغي أن أفعل ... « يستل سيفه » ....

السلطان : لا !...

الوزير : لكن يا مولاي السلطان ...

السلطان : قلت لك لا ... أغمد سيفك !...

الوزير : أصغ إليَّ قليلا يا مولاي !...

السلطان : أغمد سيفك ... لقد قبلنا هذا الموضع ... فلنستمر !...

الوزير : يا مولاي ... ما دام القاضي قد أخفق وأفلس ، فلنرجع إلى وسائلنا نحن ...

السلطان : لا ... لن أرجع إلى الوراء !...

الوزير : بالسيف كل شيء يتم في يسر ، ويحل في طرفة عين !...

السلطان : لقد اخترت القانون ... وسأمضي في هذا الطريق مهما يصادفني فيه من أوحال ...

الوزير : القانون ؟...

السلطان : نعم ... ولقد قلتها أنت منذ قليل ، ونطقت بألفاظ جميلة : إن السلطان اختار أن يخضع للقانون كما يخضع له أضعف فرد في رعيته ... إن هذا القول الرائع يستحق أن يبذل في تحقيقه كل الجهد ؟...

الوزير : أوَ تظن يا مولاي أن أضعف فرد في رعيتك يقبل الوقوف في هذا الموقف ؟... ها هوذا الشعب أمامنا إذا أذنت لي فإني أسأله وأحتكم إليه ... أتأذن ؟...

السلطان : افعل وأرني !...

الوزير : « مخاطبا الجموع » أيها الناس !... إنكم لترون كيف تعامل هذه المرأة الوقحة سلطانكم المعظم ... أأنتم مقرون فعلها ؟...

الشعب : « صائحًا » لا ...

الوزير : أأنتم راضون عن مسلكها المهين لحاكمنا المبجل ؟!...

الشعب : لا !...

الوزير : أترونها مستحقة للعقاب ؟!...

الشعب : « يصيح » نعم ...

الوزير : ما هو الجزاء الخليق بها ؟...

الشعب : « صائحا » الموت !...

الوزير : « ملتفتا إلى السلطان » أرأيت يا مولاى ؟! ها هو ذا الشعب قد نطق بالحكم !...

الغانية : « متجهة إلى الشعب » الموت لى ؟!... لماذا أيها الناس تحكمون علىّ بالموت ؟!... أى ذنب جنيت ؟... هل الشراء إهانة وجريمة ؟... هل أنا سارقة لهذا المال ؟!... إنه مدخرى طول حياتى !... هل أنا ناهبة خاطفة لهذا المعروض للبيع ؟... إنى اشتريته بحُر مالى فى مزاد علنى أمام أعينكم ... ما هى جريمتى إذن ؟... تكلموا ... بأى ذنب تطلبون سفك دماء امرأة ضعيفة اشترت شيئاً فى مزاد !...

أصوات : « ترتفع من بين الجموع » الموت للعاهرة !...

أصوات أخرى : « من بين الجمع » لا ... لا تقتلوها !...

السلطان : « للوزير » أترى ؟...

الوزير : « للشعب » أيها الناس !... أترون أن ينفذ فيها الحكم ؟!...

أصوات : « تصيح » نعم !...

أصوات أخرى : « صائحة » لا ...

السلطان : انقسمت الآراء أيها الوزير !...

الوزير : لكن الأغلبية يا مولاى فى جانب الموت !...

السلطان : ليس هذا عندى بمبرر لقتل هذه المرأة .. إنك تريد أن تلجأ إلى تبرير شبه قانونى لاستخدام السيف !...

الوزير : موت هذه المرأة ضرورى لإخراجنا من هذا المأزق !...

السلطان : الآن نحتاج إلى جثة هامدة لإنقاذنا ؟!...

الوزير : نعم يا مولاى !...

السلطان : بين الوحل والدم يتعين علىّ مرة أخرى أن أختار ؟!...

الوزير : لم يبق لنا غير السيف ليشق لنا مخرجا !...

السلطان : إن الذى يمضى قدما إلى الأمام فى خط مستقيم يجد دائمًا مخرجا ...

الوزير : تقصد يا مولاى ؟...

السلطان : أقصد أنه لا نكوص على الأعقاب ، ولا عودة إلى الوراء ... أفهمت ؟...

الوزير : فهمت يا مولاى ... إنك تريد أن تمضى فى اتباع القانون !...

السلطان : هو ذاك ... لن أحيد عما اخترت ، ولن أرجع فيما قررت !...

الوزير : وكيف تمضى فى اتباع القانون ، والقاضى نفسه يعلن إخفاقه وإفلاسه ...

السلطان : هو حر فى إعلان إفلاسه !... أما أنا فلا ... لن أتقهقر ... فلنسر فى الطريق إلى نهايته ...

الوزير : وهذه المرأة التى تسد علينا هذا الطريق ؟!...

السلطان : دع أمرها لى « يلتفت إلى المرأة » تعالى هنا أيتها المرأة !...

اقتربى !؟... خطوة أخرى ... هنا أمامى !... أريد أن ألقى عليك بضعة أسئلة !... أتسمحين ؟...

الغانية : سمعًا وطاعة يا مولاى !...

السلطان : أولا ... وقبل كل شيء ... من أنا ؟...

الغانية : من أنت !؟...

السلطان : نعم ... من أكون أنا ؟...

الغانية : أنت السلطان !...

السلطان : أنت معترفة بأنى السلطان ؟...

الغانية : طبعًا !...

السلطان : حسن ... والسلطان ما عمله !؟...

الغانية : عمله ... أن يحكم !...

السلطان : أنت موافقة على أنه يحكم ؟...

الغانية : بدون شك ...

السلطان : حسن جدًا ... إذن ما دمت مقرة بكل هذا ؛ فكيف تطالبين بأن يسلم إليك السلطان !...

الغانية : لأنه أصبح من حقى !...

السلطان : لست أناقش حقك ... إنما أنا أتساءل فقط عن إمكان تنفيذ هذا الحق .. ما دمت سلطانا يحكم ، فكيف أستطيع القيام بمهام منصبى إذا سلمت إليك فى منزلك !؟...

الغانية : ليس أبسط ولا أسهل من ذلك — أنت سلطان أثناء النهار ... إذن فأنا أعيرك للدولة طول النهار ، فإذا جاء

المساء عدت إلى منزل !...

السلطان : للأسف ... أنت لا تفهمين عملى فهما صحيحًا ... إن السلطان ليس صاحب حانوت يفتحه نهارًا ويغلقه ليلا ... إنه رهن إشارة الدولة فى كل لحظة ... وهنالك من المسائل الخطيرة العاجلة ما تضطره أحيانًا كثيرة إلى الاجتماع برجال دولته فى منتصف الليل ...

الغانية : أمر هذا سهل أيضًا ... ففى بيتى حجرة منعزلة هادئة تستطيع العمل فيها مع رجال دولتك !...

السلطان : أترين هذا الوضع مقبولا !؟...

الغانية : أكثر من مقبول ... أراه مدهشًا !...

السلطان : هو مدهش فعلا ... سلطان يصرف شئون دولة من بيت امرأة يقال : إنها ... لا تؤاخذينى !... معذرة !...

الغانية : قل ... قل !... الكلمة لم تعد تجرحنى !... لكثرة ما تلقيت من الوخزات : تكسرت النصال على النصال !... على أنى أؤكد لك أيها السلطان أنك ستجد عندى من البهجة ما لا تجد عندك !...

السلطان : ربما ... إلا أن الحاكم لن يحسن القيام بمهام الحكم من بيوت الآخرين ...

الغانية : هذا إذا كان الحاكم حرًا ...

السلطان : أصبت ... إنى لست حرًا ... « يطرق برأسه « لحظة صمت ...... »

الغانية : ما يعجبنى فيك أيها السلطان هو موقفك الهادئ الرزين أمام

هذه الكارثة !...

السلطان : « يرفع رأسه نحوها » أمعترفة أنت إذن أنها كارثة ؟!...

الغانية : بديهي !... سلطان عظيم مثلك تساء معاملته على هذه الصورة !...

السلطان : وهل أحد غيرك يسيء معاملتي ؟!...

الغانية : حقًا !... وأي فخر وأي سرور أن أسمع هذا من فم سلطان عظيم !... إنه لشرف يستحق أن يدفع فيه ذهب الأرض كله !... ما من أحد يجسر بعد اليوم على ازدرائي في المدينة !... فأنا أسيء معاملة السلاطين !...

الوزير : « ثائرًا » كفى أيتها المرأة !!... كفى !... إن هذا لفوق الاحتمال !... إنها قد جاوزت كل حد !... لا بد من ضرب رأس هذه الشقية الوقحة !...

السلطان : اهدأ !...

الغانية : نعم ... اهدأ أيها الوزير !... ولا تتدخل فيما لا يعنيك !...

الوزير : أيمكن احتمال هذا كله !... اللهم صبرًا !... اللهم صبرًا !...

الغانية : نعم ... تجمل بالصبر أيها الوزير !... ودعنا نتحدث أنا والسلطان ؛ فهذا موضوع يعنينا وحدنا !...

السلطان : هذا صحيح !...

الغانية : أين وقفنا يا مولاي السلطان ؟!...

السلطان : لم أعد أدري ... أنت التي كنت تتحدثين ...

الغانية : نعم !... هأنذي أتذكر ... وقفنا عند قولي : إنه لشرف ...

السلطان : أن تسيئي معاملتي !...

الغانية : بل أن أحظى بمتعة الحديث معك !... في الواقع يا مولاي ، إنها المرة الأولى التي أراك فيها عن قرب ... لطالما حدثوني عنك ، لكني ما كنت أعرف أنك بهذا اللطف !...

السلطان : شكرًا !...

الغانية : حقًا لكأننا صديقان منذ عهد بعيد !...

السلطان : أوَ من عادتك أن تعرِّضي أصدقاءك هكذا للمهانة والسخرية ؟!...

الغانية : لا ... مطلقًا !... بالعكس !...

السلطان : إذن ، لماذا جعلت مني استثناء ؟...

الغانية : هذا بالفعل ما بدأ يؤلمني ... ولكم أتمنى الآن أن أدخل على قلبك السرور وأقدم إليك التجلة والاحترام لكن كيف ؟... كيف أستطيع ذلك ؟... ما هي الطريقة ؟...

السلطان : الطريقة بسيطة ...

الغانية : توقيع حجة العتق هذه ؟!...

السلطان : أظن !...

الغانية : لا ... لا أريد أن أتركك ... لا أريد أن أتخلى عنك ... أنت مملوك لي ... أنت لي ... لي ...

السلطان : لك ولغيرك من أبناء هذا الشعب كله !...

الغانية : إني أريد أن تكون لي وحدي ...

السلطان : وشعبي ؟...

الغانية : شعبك لم يدفع فيك ذهبًا ليحصل عليك !...

السلطان : هذا صحيح ... لكن يجب أن تعلمي أنه من المستحيل قطعًا أن أكون لك وحدك ، وأبقى بعد ذلك سلطانًا !... ليس هناك غير وضع واحد يستقيم معه أن أكون لك وحدك !...

الغانية : ما هو ؟...

السلطان : هو ألا أكون سلطانًا ... أن أنزل عن العرش ، وأعتزل الحكم ...

الغانية : لا ... لست أريد لك ذلك ... أريد أن تبقى سلطانًا !...

السلطان : في هذه الحالة لا بد من التضحية !...

الغانية : من جهتي ؟!...

السلطان : أو من جهتي أنا ...

الغانية : أتخلى عنك ؟!...

السلطان : أو أتخلى أنا عن العرش !...

الغانية : وعليّ أنا أن أختار !...

السلطان : بالطبع عليك أنت أن تختاري ... لأن زمام الأمر كله في يدك أنت الآن !...

الغانية : ألي كل هذه الأهمية وكل هذا الخطر !؟...

السلطان : في هذه اللحظة ... نعم !...

الغانية : هذا مدهش !...

السلطان : حقًا !...

الغانية : أنا إذن أملك في يدي زمام الأمر الآن ؟...

السلطان : نعم !...

الغانية : بمشيئتي أبقى السلطان !...

السلطان : نعم !...

الغانية : وبكلمة مني يتم عزل السلطان ؟!...

السلطان : نعم !...

الغانية : إن هذا حقًا لمدهش !...

السلطان : بدون شك !...

الغانية : ومن الذي أعطاني كل هذه السلطة ؟... المال ؟...

السلطان : القانون ...

الغانية : لفظ من فمي يستطيع أن يغير مصيرك ، ويوجه حياتك : إما إلى الرق والعبودية ، وإما إلى الحرية والسيادة !...

السلطان : وعليك أنت أن تختاري !...

الغانية : « متفكرة » بين العبودية التي تمنحك لي ، وبين الحرية التي تحفظك لعرشك وشعبك !...

السلطان : عليك أنت أن تختاري !...

الغانية : الخيار صعب !...

السلطان : أعرف !...

الغانية : إنه مؤلم أن أتركك تذهب ... أن أفقدك إلى الأبد !... ولكنه مؤلم أيضًا أن أراك تفقد عرشك !... لأن بلادنا لن يتاح لها أبدًا سلطان في مثل عدلك وشجاعتك ... لا ... لا تترك الحكم ، ولا تعتزل العرش !... أريد أن تبقى

سلطانًا ...

السلطان : وإذن ؟...

الغانية : سأوقع الحجة !...

السلطان : حجة العتق ؟...

الغانية : نعم !...

القاضى : « يبادر بتقديم الحجة » ها هى ذى الحجة ...

الغانية : لى فقط طلب أخير ...

السلطان : ما هو ؟...

الغانية : أن تمنحنى يا مولاى هذه الليلة ... ليلة واحدة ... شرفنى بقبول دعوتى ، وكن ضيفى حتى مطلع الفجر !... فإذا أذن المؤذن لصلاة الفجر من فوق مئذنته هذه فإنى أوقع حجة العتق ، ويصبح مولاى السلطان حرًا طليقًا ...

القاضى : إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر !...

الغانية : نعم ... أهذا كثير ؟!... أن أشترى بكل هذه الأكياس من الذهب لا السلطان نفسه ، ولكن ليلة واحدة يمضيها فى ضيافتى ؟!...

السلطان : قبلت !...

الوزير : لكن يا مولاى ... من يضمن لنا هذا الوعد من مثل هذه المرأة ؟!...

السلطان : أنا ... أنا الضامن ... إنى أثق بقولها ...

القاضى : أتقسمين على ما تقولين أيتها المرأة ؟!...

الغانية : نعم ... أقسم ... أقسم بالله العظيم ثلاثًا ... إنى أوقع

حجة العتق عند أذان المؤذن لصلاة الفجر من فوق هذه المئذنة !...

القاضى : اللهم فاشهد !... ونحن جميعًا هنا شاهدون !...

السلطان : أما أنا فمصدقها دون قسم !...

الغانية : والآن ... يا مولاى السلطان النبيل ، أتأذن وتشرف بيتى المتواضع بزيارتك الكريمة ؟!...

السلطان : بكل سرور !...

« ينهض السلطان ويتبع الغانية إلى دارها ... موسيقى .... »

« ستار »

الفصل الثالث

« عين الساحة ... وقد ظهر منها جانب المسجد بمئذنته ... كما ظهر جانب منزل الغانية ، يكشف عن جزء من الحجرة ذات النافذة المطلة على الساحة ... والوقت ليل »

* * *

الوزير : « فى الساحة يصيح فى الحراس » ماذا تنتظر هنا كل هذه الجموع ، فى منتصف الليل !... اطردوا الناس !... وليذهب كل إلى بيته ... إلى فراشه !...

الحراس : « يطردون الجماهير » إلى دوركم !... إلى بيوتكم !...

الجموع : « مزمجرة » لا ... لا ...

الإسكاف : « صائحًا » أريد أن أبقى هنا !...

الخمار : وأنا أيضًا لن أتزحزح من هنا !...

الوزير : « للحراس » ماذا يقولون ؟...

الحراس : يرفضون !...

الوزير : « صائحـــــا » يرفضون ؟!... ما هذا الهراء ؟!... أرغموهم !...

الحراس : « بقوة » كل إلى داره ... كل إلى بيته ... اذهبوا !... اذهبوا !...

الإسكاف : إنى هنا فى دارى ... وها هو ذا حانوتى !..

الخمار : أنا أيضًا حانى ها هنا أمامكم !...

الحراس : ألا تطيعون الأوامر !... هلموا !... هلموا !... « يدفعونهم » ...

الإسكاف : لا داعى إلى العنف ... أرجوكم !...

الخمار : لا تدفعونى بهذه الشدة !...

الوزير : « للحراس » أحضروا هذين المشاغبين !...

« الحراس يقبضون على الإسكاف والخمار ويحضرونهما بين يدى الوزير ... »

الإسكاف : لم أفعل والله شيئًا يا مولاى الوزير !...

الوزير : لماذا تمتنع عن الذهاب إلى بيتك ؟...

الإسكاف : لست أريد الإيواء إلى فراشى !... لى رغبة قوية فى أن أبقى هنا يا مولاى الوزير ؛ كى أشاهد ؟!...

الوزير : تشاهد ماذا !...

الإسكاف : أشاهد خروج مولانا السلطان من هذا البيت ...

الخمار : أنا أيضًا يا مولاى الوزير ... دعنى أشاهد ذلك ...

الوزير : حقًا إنها لجرأة !... لقد بلغت الجرأة اليوم بالجميع إلى حد القحة !... حتى أنت وزميلك ... تجسران أن تتكلما بهذه اللغة !...

الخمار : إنها ليست جرأة يا مولاى الوزير ، ولكنها الحماس !...

الوزير : الحماس ؟!...

الإسكاف : نعم يا مولانا الوزير ... نلتمس أن تأذن لنا بالمشاهدة ...

الوزير : يا للصفاقة !... وما شأنكما بهذا الأمر ؟!...

الإسكاف : ألسنا من المواطنين الصالحين ؟!... إن مصير سلطاننا

لا بد أن يهمنا !...

الوزير : هذا ليس سببًا يبيح لكما عصيان الأوامر !...

الإسكاف : إننا لا نعصى ، ولكننا نتوسل ... كيف يغمض لنا جفن الليلة ومصير مولانا السلطان فى الميزان ؟!...

الوزير : فى الميزان ؟!...

الإسكاف : نعم يا مولاى ... ميزان الأهواء المتقلبة !...

الوزير : ماذا تعنى ؟...

الإسكاف : أعنى أن المصير لا يبعث على الاطمئنان ...

الوزير : كيف أتاك علم هذا ؟!...

الإسكاف : مع امرأة كهذه لا يمكن الجزم بشيء !...

الخمار : لقد عقدنا رهانًا بيننا ... هو يقول : إن هذه المرأة ستخلف وعدها ، وأنا أقول : إنها ستفى بالوعد ...

الوزير : شيء جميل !... حدث خطير كهذا الحدث تجعلان منه لعبة من ألعاب الرهان !...

الخمار : لسنا وحدنا فى هذا يا مولانا الوزير ... كثيرون مثلنا الليلة بين هذه الجماهير يتراهنون !... حتى المؤذن والجلاد قد تراهنا ...

الوزير : الجلاد ؟!... أين هو الجلاد ؟!...

الخمار : « مشيرًا بيده » هناك يا مولاى !... إنه يحاول الاختفاء بين الناس ...

الوزير : « للحراس » أحضروه !...

: « الحراس يحضرون الجلاد إلى الوزير »

الجلاد : « خائفًا » ليس الذنب ذنبى يا مولانا الوزير !... الغلطة غلطة المؤذن ... إنه هو المسئول ... هو الذى لم يؤذن للفجر !...

الوزير : للفجر ؟!... أى فجر ؟!... لسنا بعد فى صدد الفجر أيها الأحمق !... « الخمار والإسكاف يضحكان » تجسران على الضحك فى حضرتى ؟!... اغربا عن وجهى ... اغربا !... « الخمار والإسكاف ينطلقان هربًا » والآن أيها الجلاد ؟!... أمشغول أنت فى المراهنات ؟!...

الجلاد : المراهنات ؟!... من قال ذلك يا مولاى ؟!...

الوزير : أريد منك الجواب الصريح عن سؤالى ...

الجلاد : ولكنى يا مولاى ...

الوزير : لا تخف !... وأخبرنى ...

الجلاد : ولكن هذا الرهان يا مولاى ؟...

الوزير : أعرف .. أعرف ، ولن أعاقبك ... أجبنى صراحة عن هذا السؤال : هل ستخلف هذه المرأة وعدها فى رأيك أو ستفى به ؟!...

الجلاد : ولكنى يا مولاى الوزير ؟!...

الوزير : قلت لك لا تخف وأفصح عن رأيك دون حرج ! .. هذا أمر ... عليك طاعته !...

الجلاد : أمرك مطاع يا مولاى ... إنى فى الحقيقة لست أثق فى هذه

المرأة ...

الوزير : لماذا ؟!...

الجلاد : لأنها كاذبة ... مخادعة ... محتالة ...

الوزير : أتعرفها ؟!...

الجلاد : عرفت بعض حيلها ، عندما كنت هنا ذلك اليوم ، فى انتظار الفجر لأنفذ حكم الإعدام فى النخاس ...

الوزير : كاذبة ... مخادعة ... محتالة ؟!...

الجلاد : نعم !...

الوزير : وماذا تستحق امرأة كهذه ؟!...

الجلاد : العقاب بالطبع !...

الوزير : وما هو العقاب الذى تراه لها إذا كذبت وخدعت سلطاننا المعظم ؟!...

الجلاد : الإعدام بلا شك !...

الوزير : حسن ... كن إذن على أهبة الاستعداد لتنفيذ هذا الحكم عند الفجر !...

الجلاد : « كالمخاطب نفسه » الفجر ؟!... أيضًا ؟!...

الوزير : ماذا تقول ؟!...

الجلاد : أقول إنه عند الفجر سأكون مستعدًا لتنفيذ أمر مولاى الوزير ...

الوزير : نعم ... إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر ، ولم يخرج سلطاننا من هذا المنزل حرًا ...

الجلاد : فإلى أقطع رقبة هذه المرأة !...

الوزير : نعم ... عقابًا على جريمة ...

الجلاد : الكذب والخداع ؟...

الوزير : لا ...

الجلاد : « غير فاهم » لا ؟!...

الوزير : « كالمخاطب لنفسه » لا ... هذا لا يكفى ... تلك جريمة قد لا تستحق الإعدام ... وهذه المرأة كفيلة أن تجد من العبارات الرنانة فى القانون والمنطق ما تبرر به فعلها ... لا ... يجب أن تكون هناك جريمة فظيعة خطيرة ، لا يمكن تبريرها ولا الدفاع عنها ... جريمة تجلب السخط العام من الشعب كله ... فمثلا يمكن أن نقول إنها ... جاسوسة !...

الجلاد : جاسوسة ؟!...

الوزير : نعم . تعمل لحساب المغول !... وعندئذ سينهض الشعب بإجماعه ليطالب برأسها !...

الجلاد : نعم ... جزاء وفاقا !...

الوزير : أليس هذا رأيك ؟...

الجلاد : وسأرفع صوتى ... الموت للخائنة !...

الوزير : صوتك وحده لن يكفى !... يجب أن تكون هناك أصوات أخرى غير صوتك ترتفع بهذا الهتاف !...

الجلاد : ستكون هنالك أصوات أخرى ...

الوزير : أتعرف أصحابها ؟!...

الجلاد : ليس من الصعب إيجادهم ...

الوزير : نعم ... يجب إعداد الشهود ...

الجلاد : سهل كل هذا يا مولاى !...

الوزير : أظن مثل هذا التدبير يمكن أن ينجح ... إلى محمد عانك إذا ساءت الأمور ...

الجلاد : إنى خادمك المخلص يا مولاى الوزير !...

« يضىء جزء من الحجرة فى منزل الغانية »

الوزير : صه !... النور فى النافذة !... فلنبتعد قليلا !...

« تظلم الساحة ... بينا تضاء الحجرة ويظهر السلطان والغانية ويتجهان إلى مقعد وثير »

السلطان : **« وهو يجلس »** إن منزلك فاخر !... ورياشك ثمينة !...

الغانية : **« جالسة عند قدميه »** نعم ... لقد قلت لك الساعة يا مولاى ، إن زوجى كان من أثرياء التجار ، وكان له ذوق ، وكان به ولع بالشعر والغناء !...

السلطان : كنت من جواريه ؟!...

الغانية : نعم ... اشترانى ولى من العمر ستة عشر عاما ... ثم أعتقنى وتزوجنى قبل موته ببضع سنوات ...

السلطان : إن حظك خير من حظى ... فأنت لم ينس أحد أن يعتقك فى الوقت المناسب !...

الغانية : إن حظى السعيد حقًا هو فى تشريفك بيتى هذه الليلة !...

السلطان : هأنذا فى بيتك !... ماذا تنوين أن تصنعى بى هذه الليلة ؟!...

الغانية : لا شىء سوى أن أرفه عنك قليلا ...

السلطان : أهذا كل شىء ؟!...

الغانية : ولا شىء غيره ... لقد سبق أن قلت لك : إن عندى من البهجة ما ليس عندك ... لدى من الجوارى الحسان من حذقن الرقص والغناء والضرب على كل آلة من آلات الطرب ... ثق أنك لن تسأم ولن تمل هذه الليلة هنا ...

السلطان : حتى مطلع الفجر ؟...

الغانية : لا تفكر الآن فى الفجر ... إن الفجر لم يزل بعيدًا !...

السلطان : سأفعل كل ما تطلبين حتى مطلع الفجر !...

الغانية : لن أطلب إليك شيئًا غير الحديث ، وتناول الطعام ، والاستماع إلى الغناء ...

السلطان : لا شىء غير هذا ؟!...

الغانية : وما تريد أن أطلب إليك أكثر من هذا ؟!...

السلطان : لست أدرى ... أنت أعلم !...

الغانية : فلنبدأ إذن بالحديث !... حدثنى !...

السلطان : عن نفسى ؟!...

الغانية : نعم ... عن قصتك ؟!... احك لى قصتك !...

السلطان : تريدين منى أن أحكى لك قصصًا ؟!...

الغانية : نعم ... فى الحق إنه لا بد أن تكون لديك ذخيرة من

القصص الرائعة الممتعة !...

السلطان : أنا الآن الذى يحكى القصص ؟!...

الغانية : ولِمَ لا ؟!...

السلطان : حقًا ... هذا ما ينبغى !... ما دمت أنا فى وضع شهر زاد !... هى أيضًا كان عليها أن تحكى القصص الليل بطوله ، فى انتظار الفجر الذى سيقرر مصيرها !...

الغانية : « ضاحكة » وأنا إذن شهريار الهائل المخيف ؟!...

السلطان : نعم ... أليس هذا عجيبًا ... كل شىء اليوم يسير مقلوبًا معكوسًا !...

الغانية : لا ... أنت السلطان دائمًا ... أما أنا فهى التى فى وضع شهر زاد الجالسة دائمًا عند قدميك !...

السلطان : شهر زاد القابضة على رقبة شهريارها القلق حتى يدركه الصباح !...

الغانية : لا ... بل شهرزاد التى تدخل الانشراح فى صدر سلطانها ، والفرح والبهجة فى قلبه ... سترى الآن كيف أعالج قلقك وشكك !...

« تصفق ... فإذا بموسيقى لطيفة قد تصاعدت من وراء الأستار ...... »

السلطان : « بعد أن أصغى » عزف جميل ...

الغانية : وأنا بنفسى التى سترقص لك !...

« تنهض وترقص ...... »

السلطان : « بعد انتهاء رقصتها » جميل !... كل هذا جميل !... أوَتصنعين هذا كل ليلة ؟!...

الغانية : لا يا مولاى !... هذا استثناء !... لك أنت ... فأنا لم أرقص بنفسى منذ عتقى وزواجى !... أما فى بقية الليالى فإن الجوارى يقمن بالرقص والغناء !...

السلطان : من أجل زبائنك ؟!...

الغانية : بل قل ضيوفى !...

السلطان : كما تشائين ... ضيوفك ... لا بد أن ضيوفك هؤلاء يدفعون إليك فى كل هذا أجرًا غاليًا ... أدركت الآن لماذا أنت على هذا الثراء !...

الغانية : ثرائى ورثته عن زوجى !... وإنى لأنفق أحيانًا على هذه الليالى أكثر مما أتقبل !!...

السلطان : لماذا ؟... لوجه الله تعالى ؟!...

الغانية : لوجه الفن ... إنى من هواته ...

السلطان : « ساخرًا » الفن الرفيع دون شك ؟!...

الغانية : أنت لا تصدق !... ولا تأخذ قولى على سبيل الجد !... فليكن !... ظن بى السوء ما شئت ... ليس من عادتى الدفاع عن نفسى ضد ظنون الآخرين !... إنى فى أعين الناس امرأة سيئة السيرة ... وقد انتهى بى الأمر إلى قبول هذا الحكم ... وقد وجدت فى ذلك الراحة لى ... ولم يعد من مصلحتى تصحيح رأى الناس ... عندما يجتاز

إنسان أقصى حدود السوء فإنه يصبح حرًا !... وأنا فى حاجة إلى حريتى !...

السلطان : أنتِ أيضًا ؟!...

الغانية : نعم ... لأفعل ما يحلو لى ...

السلطان : وما هو الذى يحلو لك ؟...

الغانية : صحبة الرجال !...

السلطان : مفهوم !...

الغانية : لا إنك قد فهمت خطأ ... الأمر ليس كما فهمت ...

السلطان : كيف هو إذن ؟!...

الغانية : أتريد الباطل أم الحقيقة ؟...

السلطان : الحقيقة بالطبع !...

الغانية : لن تصدق الحقيقة ... ما جدوى قولى إذن ؟!... إن حقيقة لا يصدقها الناس هى حقيقة لا نفع فيها ...

السلطان : قوليها على كل حال !...

الغانية : سأقولها لمجرد تسليتك !... تحلو لى صحبة الرجال من أجل أرواحهم لا من أجل أجسادهم !... أفهمت ؟...

السلطان : لا ... لم أفهم جيدًا !...

الغانية : سأفصح ... عندما كنت جارية صغيرة فى عمر مَنْ عندى الآن من الجوارى نشأنى سيدى على حب الشعر والغناء والعزف ... وكان يجعلنى أحضر ولائمه وأحادث ضيوفه ، وكانوا من الشعراء والمغنين ، كما كانوا

من أصحاب الظرف والروح والفكر ... وكنا نسهر الليالى تنشد الشعر وتغنى ونطرب ونتجاذب الحديث ، ونتراشق بالروائع واللوامع من فنون الكلام ، ونضحك من أعماق قلوبنا ... كانت تلك الليالى رائعة فاخرة ، كما كانت بريئة طاهرة ... وأرجو أن تصدق ذلك ... فسيدى كان رجلا فاضلا ، ولم تكن له من متعة فى الحياة إلا هذه الليالى ... متعة بلا خطيئة وبلا تبذل ... على هذا نشأنى ورباني ... فلما صرت زوجته فيما بعد لم يرد أن يحرمنى متعة هذه الليالى التى كانت تخلب لبى ، فسمح لى بالاستمرار فى حضورها ، ولكن من خلف أستار من الحرير ... تلك هى كل القصة ...

السلطان : وبعد وفاته ؟...

الغانية : بعد وفاته لم أستطع التخلى عن هذه العادة ، فاستأنفت دعوتى لضيوف زوجى ... كنت أستقبلهم بادئ الأمر وأنا محتجبة خلف أستار الحرير ... لكن عندما أخذ أهل الحى فى اللغط حولى وإطلاق الشائعات عنى لمرأى الرجال الداخلين كل ليلة بيت امرأة لا بعل لها ، لم أجد معنى للمضى فى الاحتجاب خلف الأستار ... وقلت : مادام حكم الناس قد أدانني ، فلأجعل من نفسى قاضيًا على تصرفاتى !...

السلطان : إنه حقًا لعجيب أن يعلن ظاهرك كل هذا الإعلان عما

ليس فى باطنك !... واجهة حانوتك تعلن عن بضاعة لا توجد فى الداخل !...

الغانية : لك أن تصدق أو لا تصدق ما قلت لك !...

السلطان : إنى أفضل أن أصدق ... هذا أدعى إلى اطمئنانى !...

الغانية : مهما يكن من أمر فأنا لا أعتزم مطلقًا تغيير حياتى ولا عاداتى !... إذا كان طريقى قد امتلأ بالوحل فإنى ماضية فى خوضه والسير فيه ...

السلطان : الوحل !!... إنه موجود فى كل طريق ... لقى من ذلك !...

الغانية : لقد ذكرتنى الآن بما فعلته بك أمام الجماهير !...

السلطان : حقًا ... لقد مرغتنى فيه !...

الغانية : كنت وقحة معك عن عمد ، ومتبذلة سليطة عن قصد ... أتدرى لماذا ؟... لأنى كنت أتخيلك فى صورة أخرى !... صورة سلطان متعجرف يزهو ويتبختر ويتعالى فى خيلاء جبروته !... كأغلب السلاطين !... بل لعلك أكثرهم غرورًا وأشدهم غطرسة ، بسبب حروبك وانتصاراتك ... فالناس يتحدثون دائمًا عن تلك الياقوتة الخيالية التى تزين عمامتك ... تلك الياقوتة الفريدة فى الدنيا التى قيل : إنك انتزعتها بحد سيفك من رأس كبير المغول !... نعم ... أعمالك عجيبة وعظيمة لذلك كانت صورتك فى رأسى مرادفة للتكبر والتحجر

والقسوة ... لكن ما إن حادثتنى بهذا اللطف وهذا التواضع حتى أصابنى شىء من الذهول والحيرة !...

السلطان : لا تغترى !... إنى لست دائمًا بهذا اللطف ، ولا بهذا التواضع !... هناك لحظات أكون فيها أشد قسوة ووحشية من أسوأ السلاطين !...

الغانية : لست أصدق هذا ! ...

السلطان : لأنك واقعة تحت تأثير الظروف الحاضرة !...

الغانية : تقصد أنك لطيف معى أنا بصفة خاصة ؟!... إن هذا يملؤنى فخرًا واعتزازًا يا مولاى العزيز !... لكن مهلا !... لعلى أسأت الفهم ... ما الذى يدعوك إلى هذا اللطف معى ؟... أهو شخصى ؟... أم القرار الذى تنتظره منى عند مطلع الفجر ؟!...

السلطان : إنى أتكلف اللطف معك وأتصنعه لأستدر عطفك !... أليس كذلك ؟!...

الغانية : وما إن تظفر بحريتك حتى تعود إلى طبعك الأصيل ، وتصبح السلطان القاسى الذى يسعى إلى الانتقام لساعات إذلاله ... وعندئذ تحين ساعة هلاكى !...

السلطان : من الحكمة إذن وبعد النظر أن تمسكينى دائمًا فى قبضتك وملكك !...

الغانية : أليس كذلك ؟...

السلطان : هذا هو المنطق بعينه ، ما دامت قد داخلتك ريبة !...

الغانية : أو ليس لى الحق أن أرتاب ؟!...

السلطان : لست ألومك إذا فعلت !... فأنا الذى ألقيت فى نفسك ، بكل بساطة وبغير احتياط ، بذور الريب ، بما أقوله عن نفسى !...

الغانية : « وهى تتأمله فاحصة » لا ...

السلطان : لا ؟... ماذا ؟!...

الغانية : إنى أفضل الاعتماد على غريزة المرأة فى أعماقى !... إنها لا تخدعنى أبدًا !...

السلطان : وماذا تقول لك غريزة المرأة ؟!...

الغانية : تقول لى إنك لست من ذلك الطراز من الرجال إنك مختلف ... وكان ينبغى أن أدرك هذا منذ اللحظة التى رأيتك فيها تتخلى عن استخدام سيفك !...

السلطان : لو تعلمين كم كان يسهل الأمر لو أنى استخدمت سيفى !...

الغانية : أتندم على ذلك الآن ؟...

السلطان : إنما أتحدث عن السهولة !... لكن الانتصار الحق هو فى حل العقدة بلباقة الأصابع ...

الغانية : وهذا ما أنت بسبيله الآن ؟!...

السلطان : نعم ... ولكنى لست واثقًا من النتيجة !...

الغانية : هب أن النتيجة خيبت آمالك ... ماذا أنت صانع ؟!...

السلطان : لكن سبق أن قلت لك ...

الغانية : تنزل عن العرش ؟!...

السلطان : نعم !...

الغانية : لا ... لست أعتقد أنك فاعل هذا حقًا !... إنى لست من البلاهة والغباء حتى أعتقد هذا أو آخذه مأخذ الجد ... وحتى لو أردت أنت أن تفعل ، فما من فرد واحد فى البلاد يقبل ، أو يدعك تقدم على هذا الفعل !... إنك ستحمل حملا على قبول الحل السهل ، وستعود إلى استخدام الوسيلة البسيطة !...

السلطان : لم يحدث قط أنى رجعت خطوة إلى الوراء ... ولا حتى فى ميدان القتال ... أعترف أن هذا خطأ من الناحية الحربية ، فهناك أحوال يتحتم فيها التقهقر ... ولكنى ما فعلت هذا قط ... لعل الحظ كان يحابينى ... لقد اعتدت على كل حال هذه العادة السيئة !...

الغانية : إنك مدهش !...

السلطان : بل الحقيقة أنى رجل عديم الخيال !...

الغانية : أنت ؟!...

السلطان : الدليل هو أنى لو كنت أملك خيالا وتصورت ما ينتظرنى فى نهاية مثل هذا الطريق لكنت صعقت !...

الغانية : ما من شىء يصعقك ... إن لك لرباطة جأش ، وثقة بالنفس ، وتحكما فى أعصابك ، وقدرة على صنع ما تريد بدقة وإحكام وحزم ... إنك بعيد عن الضعف

والمخاتلة ... إنك صريح ... طبيعى ... شجاع ... تحترم شروط اللعب بأمانة وإخلاص ... هذا كل ما فى الأمر ..

السلطان : أتحاكميننى ؟!... من الذى عليه تملق الآخر ؟!... إنها الأوضاع مرة أخرى قد انقلبت ؟!...

الغانية : أتسمح لى يا سلطانى العزيز ؟...

السلطان : بماذا ؟...

الغانية : بسؤال شخصى ... أود أن ألقيه عليك !...

السلطان : شخصى ؟!... أو كل هذا الذى نحن فيه لم يكن شخصيًا ؟!...

الغانية : أريد أن أسألك عن قلبك ؟... عن الحب ؟؟...

السلطان : الحب ؟!... أى حب ؟!...

الغانية : الحب ... لامرأة ؟...

السلطان : أتتصورين أنه لدى من الوقت ما أشغل فيه بمثل هذه الأشياء ؟!...

الغانية : عجيب !... قلبك لم يفتح أبدًا لحب امرأة ؟!...

السلطان : ومالك قد فتحت عينيك واسعتين هكذا من الدهشة !... أهى مسألة خطيرة إلى هذا الحد ؟!...

الغانية : لكنك بالتأكيد قد عرفت نساء كثيرات ؟!...

السلطان : بالضرورة ... تلك طبيعة الحياة الحربية ... قائد الجيش كما تعلمين ، تساق إليه فى كل ليلة أسيرة من الأسيرات ،

أو سبيّة من السبايا ... وأحيانًا يكون بينهن جميلات ... هذا كل ما فى الموضوع ...

الغانية : وما من امرأة واحدة بالذات نجحت فى اجتذاب نظراتك ؟!...

السلطان : نظراتى ؟!... يجب أن تعلمى أنه فى نهاية اليوم أعود دائمًا إلى خيمتى بعينين عشوتين بغبار المعركة !...

الغانية : وفى اليوم التالى ؟!... ألا تحتفظ بذكرى واحدة من تلك الجميلات ؟!...

السلطان : فى اليوم التالى أعود إلى امتطاء جوادى ... وأفكر فى شىء آخر ...

الغانية : ولكن الآن ... أنت السلطان ... ولديك دون ريب فسحة من الوقت للحب ...

السلطان : أهذا اعتقادك !...

الغانية : ما الذى يمنعك ؟!...

السلطان : مشاكل الحكم !... وهذه إحداها ؟!... تلك التى هبطت على رأسى اليوم ... على غير انتظار ... وأوقعتنى فى هذه الورطة !... أترين مشكلة كهذه يمكن أن يصفو معها المزاج للحب !...

الغانية : « **تضحك** » حقًا ...

السلطان : تضحكين !...

الغانية : سؤال آخر ... هو الأخير !... ثق من ذلك !... سؤال

جاد جدًا هذه المرة ؛ لأنه يتعلق بى ...

السلطان : بك ؟!...

الغانية : نعم ... فلنفرض أنك أعتقت عند الفجر ... ستعود طبعًا إلى قصرك !...

السلطان : طبعًا ... لدى أعمالى هناك تنتظرنى ...

الغانية : وأنا ؟!...

السلطان : وأنت ماذا ؟!...

الغانية : ألن تفكر فىَّ بعد ذلك !...

السلطان : لست أفهم ...

الغانية : لم تفهم حقًا ما أعنى ؟!...

السلطان : تعلمين أن لغة النساء تدق علىّ وتغمض فى كثير من الأحيان ...

الغانية : إنك تفهمنى جيدًا ... لأنك فى غاية الذكاء والفطنة ، بل وفى رقة الشعور أيضًا ، على الرغم مما يبدو عليك ، ومما تريد أن تتظاهر به ... ومع ذلك سأوضح لك لغتى ، إليك ما أريد أن أعرف : هل ستنسانى كلية ، وتمحونى من ذاكرتك بمجرد انصرافك من هنا ؟!...

السلطان : لا أظن أنه فى الإمكان أن أمحوك كلية من ذاكرتى ...

الغانية : وهل ستحتفظ لى بذكرى طيبة ؟...

السلطان : بدون شك !...

الغانية : وهذا هو كل شىء ؟!... وهكذا ينتهى كل شىء بالنسبة

إلىّ !...

السلطان : أستعود من جديد إلى ما سبق من ...

الغانية : لا ... أريد فقط أن أسألك : أهذه الليلة هى ليلتنا الأخيرة معًا ؟!...

السلطان : وهذا سؤال عسير الجواب !...

الغانية : حسن !... لا تجب عنه الآن !...

« تظهر الخادم .... »

الخادمة : العشاء معد يا مولاتى ...

الغانية : « تنهض » تفضل يا مولاى !...

السلطان : « وهو ينهض » إنك لآية فى الكرم والحفاوة !...

الغانية : بل أنت الذى تكرّم علىّ ..

« تقوده إلى داخل المنزل ... تصاحبهما موسيقى ... وينطفئ نور الحجـرة ، وتضىء الساحـة إضاءة خفيفة .... »

الإسكاف : « للخمار فى ركن من الساحة » انظر !... هاهما ذان يطفئان النور !...

الخمار : « ناظرًا إلى النافذة » تلك علامة طيبة !...

الإسكاف : كيف ؟!...

الخمار : إطفاء النور معناه الذهاب إلى الفراش !...

الإسكاف : وإذن !...

الخمار : وإذن فالاتفاق تام ...

الإسكاف : على ماذا ...

الحمار : على كل شيء !...

الإسكاف : تعنى أنها ستقبل التخلى عنه عند الفجر ؟!...

الحمار : نعم !...

الإسكاف : وبهذا تكسب أنت الرهان !...

الحمار : بدون أدنى شك !...

الإسكاف : أنت متفائل أكثر مما ينبغى يا صديقى !... امرأة كهذه تقبل بهذه السهولة أن تلقى بماها فى البحر ؟!...

الحمار : من يدريك ؟!... إنى أقول : نعم ...

الإسكاف : وأنا أقول لا ...

الحمار : حسن ... فلننتظر الفجر !...

الإسكاف : فى أى وقت نحن الآن ؟...

الحمار : « ناظرًا إلى السماء » بحسب النجوم ، نحن الآن تقريبًا فى منتصف الليل !...

الإسكاف : الفجر لم يزل بعيدًا ، وقد بدأ يداعبنى النعاس !...

الحمار : اذهب إلى فراشك !...

الإسكاف : أنا ؟!... مستحيل !... المدينة كلها تسهر الليلة ، وأنا الذى ينام ؟!... بل إنى أجدر الناس جميعًا بالسهر حتى الفجر ... كى أشهد هزيمتك !...

الحمار : هزيمتى أنا ؟!...

الإسكاف : بدون شك !...

الحمار : سنرى من منا المنهزم الخاسر !...

الإسكاف : « ملتفتًا إلى طرف من الساحة » انظر !... هناك !...

الحمار : ماذا ؟...

الإسكاف : « هامسًا » الوزير والجلاد ... يبدو عليهما مظهر من يتآمر ؟...

الحمار : صه !...

« الوزير يقطع المكان جيئة وذهابًا ، وهو يستجوب الجلاد .... »

الوزير : ماذا سمعت بالتحديد من الحراس ؟!...

الجلاد : سمعتهم يقولون ، يا مولاى الوزير : إنه من المستحيل قهر الناس ، وإرغامهم على الرقاد هذه الليلة !... إن الجموع لم تزل واقفة أو جالسة القرفصاء فى الدروب والأزقة ، والكل فى تهامس ولغط ...

الوزير : لغط ؟!...

الجلاد : نعم ...

الوزير : وفيم هذا التهامس واللغط ؟!...

الجلاد : فى حكاية السلطان طبعًا ... وفى ... وفيما يصنع الليلة فى هذا البيت ...

الوزير : وماذا عساه يصنع فى هذا البيت ؟... حسب رأيك !...

الجلاد : أتسألنى أنا يا مولاى الوزير ؟!...

الوزير : نعم ... أسألك أنت ... ألست من الشعب !... ورأيك

يمثل الرأى العام ؟!... أجبنى !... ماذا تتصور السلطان يصنع فى هذا البيت ؟!...

الجلاد : فى الواقع ... إنه قطعًا ... لا يقيم هناك الصلاة !...

الوزير : أتمزح !... وتجسر ؟!...

الجلاد : عفوًا يا مولاى الوزير !... إنما أردت فقط أن أقول إن هذا البيت ... ليس بالمكان المطهر !...

الوزير : إذن ... فاللغط يجرى على هذا النحو فى المدينة ؟!... إن السلطان يقضى الليلة فى بيت ...

الجلاد : من بيوت الدعارة ...

الوزير : ماذا تقول ؟...

الجلاد : هذا ما يقولون هم يا مولاى ... إنى أروى ما سمعت ...

الوزير : أهذا كل ما يذكره الناس من هذه المسألة الخطيرة !... ينسون المقصد النبيل ، والهدف السامى ، والفكرة الرفيعة ، والغاية القومية !... حتى أنت أيضًا قد نسيت كل هذا فيما أرى ...

الجلاد : لا يا مولاى الوزير ... لم أنس شيئًا !...

الوزير : سنرى !... قل لى إذن لماذا قبل السلطان دخول هذا البيت ؟...

الجلاد : كى ... كى يرضى العاهرة !...

الوزير : أهذا كل ما فى الأمر ؟!... يا للإسفاف !...

الجلاد : يا مولاى الوزير !... لقد كنت حاضرًا ... ورأيت

وسمعت كل شيء ... منذ البداية ...

الوزير : ولم تفهم شيئًا من كل ذلك ، إلا الجانب التافه الهابط من المسألة ... أيوجد كثيرون مثلك بين الناس ؟!...

الجلاد : الجميع كانوا حاضرين مثلى ...

الوزير : والجميع فهموا ما فهمت ... فيما أظن !... ولا يدور كلامهم حول السبب العميق والمعنى الجليل لكل ما حدث ... وإنما الكلام يدور حول ما تقول أنت : السلطان يقضى ليلته فى بيت من بيوت الدعارة !... يا لها من كارثة !... تلك هى الكارثة الحقيقية !...

« قاضى القضاة يظهر .... »

القاضى : لم أنم فى ليلتى !...

الوزير : أنت أيضًا ؟!...

القاضى : كيف ؟... أنا أيضًا ؟!...

الوزير : المدينة كلها هى الأخرى لم تنم هذه الليلة !...

القاضى : أعرف هذا ...

الوزير : والكل يتهامس ويلغط !...

القاضى : أعرف هذا كذلك ...

الوزير : وهل تعرف ما يقولون فى المدينة ؟!...

القاضى : أسوأ ما يمكن أن يقال !... إن موضع الإثارة والاهتمام عند الناس هو جانب الفضيحة فى المسألة !...

الوزير : مع الأسف !...

القاضى : إنها غلطتى !...

الوزير : وغلطتى أنا أيضًا ... كان ينبغى أن أكون أشد حزمًا فى الدفاع عن رأيى !...

القاضى : لكن من جهة أخرى ... كيف كنا نستطيع أن نتوقع هذا التدخل من تلك المرأة ؟...

الوزير : كان ينبغى أن نتوقع كل شىء !...

القاضى : أصبت !...

الوزير : الآن قضى الأمر ... ولم يعد فى مقدورنا صنع شىء !...

القاضى : بل إنه فى مقدورنا أن ننتزع السلطان من هذا البيت ...

الوزير : يجب أن ننتظر الفجر !...

القاضى : بل الآن ... وفى الحال !...

الوزير : ولكن الفجر لم يزل بعيدًا !...

القاضى : يجب إحضاره الآن ... وفى الحال !...

الوزير : من ؟!... ماذا ؟!...

القاضى : الفجر ...

الوزير : معذرة !... لست أفهم ؟...

القاضى : ستفهم عما قليل ... أين مؤذن هذا المسجد ؟...

الوزير : « ملتفتًا إلى الجلاد » هذا الجلاد لابد أن يعرف ...

الجلاد : إنه هناك بين الجماهير ...

القاضى : اذهب وجئنى به !...

« الجلاد يسرع طائعًا ...... »

الوزير : « للقاضى » يبدو أن لديك خطة ما ؟...

القاضى : نعم !...

الوزير : هل لى أن أعرفها ؟...

القاضى : عما قليل !...

« المؤذن يظهر لاهثًا .... »

المؤذن : هأنذا يا مولاى القاضى !...

القاضى : اقترب !... أريد أن أحدثك بخصوص الفجر ...

المؤذن : الفجر ؟!... ثق يا مولاى القاضى أنى لم أرتكب خطأ ... هذا الجلاد يتهمنى زورًا وبهتانًا بأنى ...

القاضى : استمع إلىّ جيدًا ...

المؤذن : أقسم لك يا مولاى أنى فى ذلك اليوم ...

القاضى : أن تكف عن هذه الثرثرة الفارغة ... قلت لك استمع إلىّ جيدًا ... أريد منك أن تنفذ ما سأقول بالحرف ... أفاهم ؟...

المؤذن : نعم !...

القاضى : اذهب واصعد فوق مئذنتك ... وأذن لصلاة الفجر !...

المؤذن : متى ؟...

القاضى : الآن ...

المؤذن : « مندهشًا » الآن !...

القاضى : نعم ... وفى الحال ...

المؤذن : الفجر ؟!...

القاضي : نعم ... الفجر ... اذهب وأذن لصلاة الفجر !... أواضح كلامي هذا أم غير واضح ؟!...

المؤذن : واضح ... ولكننا الآن تقريبًا في منتصف الليل ؟!...

القاضي : فليكن !...

المؤذن : الفجر في منتصف الليل ؟!...

القاضي : نعم !... وأسرع !...

المؤذن : أليس هذا ... متقدمًا عن موعده قليلا ؟!...

القاضي : لا !...

المؤذن : « هامسًا لنفسه » لقد احترت مع هذا الفجر ... مرة يطلب مني تأخيره ، ومرة يطلب مني تقديمه !...

القاضي : ماذا تقول !...

المؤذن : لا شيء يا مولانا القاضي ... سأذهب فورًا لأنفذ أمرك !...

القاضي : اسمع !... إياك أن تقول لأحد إن القاضي هو الذي أصدر إليك هذا الأمر !...

المؤذن : تعني يا مولاي ...؟

القاضي : نعم ... إنك أنت الذي تصرف هكذا من تلقاء نفسه !...

المؤذن : من تلقاء نفسي ؟!... أصعد فوق المئذنة لأؤذن الفجر في منتصف الليل ؟... إن من يتصرف هكذا لا بد أن يكون

: معتوهًا مخبولا !...

القاضي : دع لي أنا مهمة تفسير تصرفك في الوقت المناسب !...

المؤذن : لكن يا مولاي ... إني بهذا العمل سأعرض نفسي لسخط الجماهير ... وسيطالبون بعقابي !...

القاضي : وأمام مَنْ ستقدم وتحاكم ؟... أليس أمامي أنا قاضي القضاة ؟!...

المؤذن : وإذا أنكرتني وتخليت عني !...

القاضي : لا تخف !... لن يحدث هذا مطلقًا ...

المؤذن : وكيف أطمئن ؟...

القاضي : أعدك ... ألا تثق بوعدي ؟!...

المؤذن : « هامسًا لنفسه » الوعود الليلة كثيرة ... وما من أحد متأكد من شيء ؟!...

القاضي : ماذا تقول ؟!...

المؤذن : لا شيء ... أتساءل فقط : لماذا التعرض لكل هذا الخطر ؟!...

القاضي : إنها خدمة تقدمها للدولة ...

المؤذن : « مندهشًا » للدولة !...

القاضي : نعم ، وسأفضي إليك بالأمر ليطمئن قلبك !... اسمع !... إنك إذا أذنت لصلاة الفجر الآن ، فإن السلطان يخرج في الحال من هذا المنزل حرًا طليقًا ... هذا كل الموضوع في كلمتين ... فهمت الآن ؟!...

المؤذن : إن هذا لعمل وطنى !...

القاضى : إنه بالفعل كذلك ... ما قولك إذن ؟!...

المؤذن : سأقوم فورًا بهذا العمل ... وسأكون فخورًا به طول حياتى ... واسمح لى يا مولاى القاضى أن أفضى إليك أنا أيضًا ، والكلام فيما بيننا ... أنى سبق أن كذبت كذبة صغيرة من هذا القبيل لأنقذ رأس محكوم عليه بالإعدام ، فكيف لا أفعل مثلها كى أستخلص حرية مولانا السلطان المحبوب !...

القاضى : أصبت ، ولكنى أوصيك بالكتمان !... إياك أن تطلق لسانك بالثرثرة !... خبىء فخرك هذا فى صدرك ... لأنك إذا جعلت تباهى بما فعلت فى ظروفنا هذه فإن العمل كله يفسد ... أغلق فمك جيدًا إذا أردت لعملك أن يثمر ويقدر !...

المؤذن : سأغلق فمى !...

القاضى : حسن ... أسرع الآن وقم به !...

المؤذن : أسرع من الريح !...

« **ينصرف المؤذن على عجل** ...... »

القاضى : « **للوزير** » ما رأيك ؟...

الوزير : هل تظن حيلة كهذه ستصلح الأمور ؟!...

القاضى : نعم ... وعلى أحسن ما يكون ... لقد جعلت هذه الليلة أقلب الأمر على كل وجه ... إلى ما علمت أعتبر نفسى قد

هزمت !... فلم يزل فى جعبتى — أو على الأصح فى جعبة القانون — كثير من الحيل !...

الوزير : نسأل الله ضارعين أن تنجح لك حيلة هذه المرة !... كرامتك الشخصية أصبحت فى الميزان !...

القاضى : سوف ترى !...

« **صوت المؤذن يرتفع** ...... »

المؤذن : « من **بعيد** » الله أكبر !... الله أكبر !... حىّ على الصلاة !... حىّ على الصلاة !... حىّ على الفلاح !... حىّ على الفلاح !...

« **الجماهير تظهر فى هرج ومرج ودهشة واحتجاج وسخط** .... »

الشعب : « **صائحا** » الفجر الآن ؟... والليل نائم ؟!... نحن فى وسط الليل ... إنه مجنون !... هذا مجنون ... اقبضوا عليه ... أنزلوه ... من فوق المئذنة ... أنزلوه ...

الوزير : « **للقاضى** » الجماهير ستبطش بهذا المسكين !...

القاضى : مُر حراسك بتفريق الجموع ؟...

المؤذن : « **صائحا فى الحراس** » أخلوا الساحة ... أخلوا الساحة من الجميع ؟...

« **الحراس يطردون الناس ويخلون الساحة ... بينما يستمر المؤذن فى الأذان ... وعندئذ يجىء النور فى حجرة الغانية وتظهر هى فى النافذة يتبعها**

السلطان ... »

الغانية : أهو حقًا الفجر ؟...

القاضى : إنه الأذان لصلاة الفجر !... انزلى هنا فى الحال ؟!...

الغانية : هذا غير معقول ... انظروا إلى النجوم فى السماء ...

السلطان : « ناظرًا إلى السماء » حقًا ... هذا أمر غريب !...

القاضى : قلت لك انزلى فى الحال أيتها الغانية !...

السلطان : « للغانية » فلننزل معًا لنرى معًا ما فى الأمر !...

الغانية : هلم بنا يا مولاى !...

« يغادران الحجرة ... ويطفئان نورها ثم يظهران خارجين من المنزل .... »

السلطان : « وهو ينظر إلى السماء » الفجر ؟!... فى هذه الساعة ؟!...

الوزير : نعم يا مولاى السلطان !...

السلطان : هذا حقًا عجيب !... ما قولك أيها القاضى ؟!...

القاضى : لا يا مولاى السلطان ... الفجر لم يبزغ بعد !...

الوزير : « مأخوذًا » كيف ؟!...

القاضى : هذا شىء واضح ... نحن ما زلنا بالليل !...

المؤذن : « للقاضى وهو مندهش » لكن ...

القاضى : لكننا كلنا قد سمعنا المؤذن يؤذن لصلاة الفجر ؟!... سمعت ذلك أيتها المرأة ؟!...

الغانية : نعم ... سمعت !...

القاضى : أنت إذن معترفة بأنك سمعت صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر ؟!...

الغانية : نعم ... ولكن ...

القاضى : لا كلام بعـــد ذلك !... ما دام قد صدر منك هذا الاعتراف ، فلم يبق لك إلا الوفاء بوعدك ، ها هى ذى حجة العتق ، وما عليك إلا التوقيع ...

« يقدم إليها الحجة ...... »

الغانية : لقد وعدت بالتوقيع عند الفجر ... وهأنتذا أيها القاضى تعترف بأننا لم نزل بالليل !...

القاضى : مهلا أيتها المرأة !... إن وعدك منقوش فى رأسى كلمة كلمة !... لقد قلت بالحرف : « عند سماع صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة الفجر ... » فالمسألة كلها الآن تنحصر فى هذا السؤال : هل سمعت أولم تسمعى صوت المؤذن ؟...

الغانية : سمعت ... ولكن ما دام الفجر لم يزل بعيدًا ...

القاضى : لم يكن الفجر ذاته فى الموضوع ... ولكن الوعد انصب على صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة الفجر ... فإذا أخطأ المؤذن فى التقدير أو التصرف ، فهو مسئـول عن خطئه ... هذا شأنه هو ... ولكنه ليس شأننا نحن ... أفهمت ؟!...

الغانية : فهمت ... لا بأس بها من حيلة !...

القاضى : إن المؤذن سبحاكم بالطبع على خطئه ... ولكن هذا لا يغير شيئًا من طبيعة الواقع : وهو أننا جميعًا سمعنا المؤذن يؤذن لصلاة الفجر من فوق مئذنته ... وإذن فكل النتائج القانونية المترتبة على ذلك يجب أن تأخذ مجراها ... وفى الحال !... هلمى إذن ووقعى !...

الغانية : أهكذا تفسر شرطى ؟!...

القاضى : كما فسرتِ أنت شرطنا !...

الوزير : لقد وقعت فى عين شباك القانون ... سلمى إذن ووقعى !...

الغانية : ليس هذا من الأمانة !... إنه محض تحايل !...

الوزير : تحايل بتحايل !... وأنت البادئة ... والبادئ أظلم !... وأنت آخر من يجوز له الاعتراض والاحتجاج !...

السلطان : « صالحًا » يا المعار !... كفى ... كفى !... أبطلوا هذا العبث !... كفوا عن هذا الصغار !... إنها لن توقع ... إنى أرفض رفضًا باتًا أن توقع بهذه الطريقة !... وأنت يا قاضى القضاة ألا تخجل من اللعب هكذا بالقانون ؟!...

القاضى : يا مولاى السلطان !...

السلطان : لقد خاب ظنى !... خيبت ظنى فيك يا قاضى القضاة !... أهذا هو القانون فى رأيك ؟!... اجتهاد وبراعة فى التحايل والتلاعب ؟!...

القاضى : إنما أردت يا مولاى أن ...

السلطان : أن تنقذنى ... أعرف ذلك ... لكن ... هل تظن أنى أقبل إنقاذى بمثل هذه الوسائل ؟!...

القاضى : مع امرأة كهذه يا مولاى ... من حقنا أن ...

السلطان : لا ... ليس من حقك هذا على الإطلاق !... ليس من حقك !... قد يكون من حق هذه المرأة أن تتحايل ... ولا لوم عليها إذا هى فعلت ... وقد تكون موضع تسامح لذكائها وبراعتها !... أما قاضى القضاة ، ممثل العدالة ، وحامى حمى القانون ، وخادم الشرع الأمين . فإن من ألزم واجباته أن يحفظ للقانون نقاءه وطهره وجلاله ، مهما يكن الثمن !... وأنت نفسك الذى أراني فى البداية فضيلة القانون وما ينبغى له من احترام ، وقال لى إنه هو السيد المطاع ، وإن علىَّ أنا أن أنحنى أمامه ... وقد انحنيت بكل خضوع حتى النهاية ... لكن ... هل كان يخطر لى على بال أن أراك أنت فى آخر الأمر تنظر إلى القانون هذه النظرة ؟ وتجرده من رداء قدسيته ، فإذا هو بين يديك لا أكثر من حيل وجمل وألفاظ وألاعيب ؟!...

القاضى : دعنى أشرح لك يا مولاى !...

السلطان : لا ... لا تشرح شيئًا !... اذهب الآن !... خير لك أن تعود إلى دارك وأن تأوى إلى فراشك حتى الصباح !... أما أنا فسأحترم شرط هذه السيدة بمعناه الحقيقى الذى فهمناه كلنا !... هلمى يا سيدتى !... لنعد معًا إلى

بيتك !... إلى طوع أمرك !...

الغانية : لا يا مولانا السلطان !...

السلطان : لا ؟!...

الغانية : لا ... إن قاضى قضاتك أراد أن ينقذك ... وإنى لا أحب أن أكون أقل منه إخلاصًا لك !... أنت الآن يا مولاى حر !...

السلطان : حر ؟!...

الغانية : نعم ... هات حجة العتق يا قاضى القضاة لأوقع عليها ...

القاضى : توقعين الآن ؟!...

الغانية : نعم الآن !...

القاضى : « **يقدم إليها الحجة** » اللهم اجعلها صادقة !...

الغانية : « **توقع على الحجة** » صدقنى هذه المرة !... هاك توقيعى !...

القاضى : « **وهو يفحص بنظره التوقيع** » نعم ... أنت رغم كل شىء امرأة طيبة !...

السلطان : بل إنها لمن فضليات النساء !... وعلى أهل المدينة أن يحترموها !... هذا أمر أيها الوزير !...

الوزير : سمعًا وطاعة يا مولاى !...

القاضى : « **وهو يطوى الحجة** » تم كل شىء الآن يا مولاى على خير ما يرام !...

السلطان : وبغير أن تسفك قطرة دم !... وهذا هو الأهم !...

الوزير : بفضل شجاعتك يا مولانا السلطان !... من كان يتصور أن السير إلى نهاية هذا الطريق يحتاج إلى شجاعة أكبر من شجاعة السيف ؟!...

القاضى : حقًا !...

السلطان : فلنتقدم بالثناء على كرم هذه السيدة النبيلة ... اسمحى لى يا سيدتى أن أوجه إليك شكرى ، وأن أرجو منك أن تقبلى رد مالك إليك ، إذ لم يعد هنالك من سبب يدعو إلى خسارة مالك !... أيها الوزير فليدفع إليها من مالى الخاص ما يعادل المبلغ الذى خسرته !...

الغانية : لا ... لا يا مولاى السلطان !... لا تسترد منى هذا الشرف !... ما من ثروة فى الأرض تعدل عندى هذه الذكرى الجميلة التى سأعيش عليها طول حياتى ... إلى بشىء زهيد أسهمت فى حدث من أعظم الأحداث !...

السلطان : حسن ... ما دام للذكرى عندك هذا الشأن فاحتفظى إذن بهذا التذكار ...

« **يخلع الياقوتة الكبرى من عمامته** .... »

الوزير : « **هامسًا** » الياقوتة الفريدة فى الدنيا ؟!...

السلطان : إلى جانب فضلها تعتبر شيئًا بخسًا !...

« **يقدم إليها الياقوتة** .... »

الغانية : لا يا مولاى السلطان العزيز ... لست أستحق ... لست جديرة بكل هذه ... هذه ...

السلطان : « وهو يتحرك للانصراف » وداعًا أيها السيدة الفاضلة ...

الغانية : « وفي عينيها عبرة » وداعًا أيها السلطان العزيز !...

السلطان : « يلمح دمعتها » أتبكين ؟...

الغانية : من الفرح !...

السلطان : لن أنسى أبدًا أني كنت عبدك ليلة !...

الغانية : في سبيل المبدأ والقانون يا مولاي !...

« تطرق لتخفي دمعها ..... »

« موسيقى ... ويتحرك موكب السلطان »

« ســتار »

نماذج ومقتطفات

لبعض ما نشر عن المسرحيات المترجمة

(*) **صحيفة « نور إكلير » . « شمال فرنسا »** :

« إن مسرح توفيق الحكيم قد فرض علينا — نحن الغربيين — الإلتفات إليه ... إن رسالة توفيق الحكيم ، وإن كانت فى نتائجها النهائية لا تختلف كثيرًا عما نهدف إليه ، وما برح يشغلنا منذ أعوام ، إلا أنها فى المجال المسرحى تعبر عن عقيدة قديمة للعالم العربى ، عقيدة طالما سخر منها — بغير وجه حق — كثير من الأوربيين : إن مأساة الحياة لتكشف عن عجز أساسى فى الإنسان أمام مصيره »

روبير كيمب « عضو الأكاديمية الفرنسية » « باريس » :

« لقد قرأت المسرحيات العشر (فى المجلد الأول) لتوفيق الحكيم ، بل وأعدت قراءة مسرحيتين منها . وإنى لأعلن بكل ما فى نفسى من أخلاص أنى وجدتها كلها بالغة الأهمية . وكم أتمنى لو ظفرنا — ولو بين الحين والحين — ضمن ما يرد إلى مسرح « الكوميدى فرانسيز » من نصوص بمثل هذه الثروة فى الفكر والروعة فى الشكل ، إن توفيق الحكيم يملك موهبة الرمز والمجاز ، ويستخدمها بفخامة . وإنى بغير تردد . أؤكد أن القيمة العليا نراها واضحة فى المجلد كله » .

مجلة « رفليه » « جنوب فرنسا » :

« عشر مسرحيات (المجلد الأول) بعضها سيبقى بين الأعمال الخالدة الفن المسرحى » .

(*) هذه المقتطفات هى ترجمة لنص ما أورده الناشر الفرنسى من أقوال الصحف على غلافى المجلدين الثانى والثالث من « مسرحيات الحكيم » التى نشرت بالفرنسية فى ثلاث مجلدات تضم خمسة وعشرين مسرحية فى نحو ١٢٠٠ صفحة ظهرت ابتداء من عام ١٩٥٠ فى باريس بدار نشر « نوفيل إيسيسيون لاتين » :

صحيفة « لينوفيل ليتيرير » « باريس » :

« المسرحيات التسع الأخرى فى (المجلد الأول) بعضها « على اختلاف منابع وحيها ، تردد تلك النغمة الخالدة التى تراود المؤلف : « عجز الإنسان أمام مصيره » .

صحيفة « لير بلجيك » « بلجيكا » :

« بينا « يتمس » فى جوهره شاعر ، فإن « الحكيم » ينتمى إلى الأخلاقيين « فهو حريص على تتبع الإنسان فى مهاويه وشياطينه ... إن فن هذا الكاتب المسرحى يلقى تحت إضاءة محكمة ما فى عصرنا من شخصيات عظيمة وحقيرة » .

صحيفة « لا تريبون دى جنيف » « سويسرا » :

« إن هذه المجموعة (من المجلد الثانى) تنقسم إلى ثلاثة أجزاء المسرح السياسى ، والمسرح الفكاهى ، والمسرح التراجيدى ... إن توفيق الحكيم لذو صنعة وخيال . وإننا لنأمل لمسرحيات كهذه أن يكون لها نظارة كثيرون ، وليس قراء فقط ؛ فهى جديرة بالتقبل فوق مسارحنا » .

صحيفة « جازيت دى لوزان » « سويسرا » :

« لقد كشف لنا (المجلد الأول) عن قوة السخرية لدى الحكيم ؛ بل وعلى الأخص عن ملكاته الشعرية . وها هى مجموعة (المجلد الثانى) قد ظهرت ... إنه يكتب بحذق ، ويرسم الصور بدقة وترف ، وبروح فكهة نفاذة » .

صحيفة « ريبلكان لورين » « اللورين » :

« إنها (المجلد الثانى) مجموعة ساحرة ، تنطوى على فلسفة لا ادعاء فيها ، مفعمة بروح التفاؤل والفكاهة المستمدة بعناية من الواقع » .

مجلة « يوفوليا » « باريس » :

« إن أغنية الموت (فى المجلد الثانى) تحفة فنية حقيقية ، يجب أن توضع فى مكان الشرف من مسرح الثقافة العصرية ... إنها الحكم الدامغ على الأحقاد الوحشية ، وعلى المعارك المجنونة ، وعلى الجهل والأفكار الخاطئة المتأصلة التى تطيل أمد الشقاء البشرى ... هذه المأساة إن هى إلا احتجاج أليم على مصير يلح فى إنماء الأكاذيب التى تقتل » .

مجلة راديو تايمز « لندن » :

١٨ مارس ١٩٥٥ .

مرجريت لينون وجون جلجود

فى « شهر زاد »

هذه القصة القديمة أصبحت لها نهاية جديدة فى مسرحية توفيق الحكيم عن شهر زاد والملك الذى أسرته بقصصها ... ويعرض هنا « ريتشارد بيت » هذه المسرحية التى سيقدمها البرنامج الثالث يومى الإثنين والجمعة ، بعد أن نقلت إلى الإنجليزية :

تبدأ مسرحية شهر زاد لتوفيق الحكيم صباح اليوم التالى للألف ليلة وليلة ، وقد قصت جميع الحكايات المعروفة ، والملك شهريار متبرم ضجر ، يخشى رعاياه أن يكون قد أصيب بالجنون ، ويرى الوزير أن حيرة الملك سببها الحب لزوجته شهر زاد التى يحبها الوزير نفسه حبًا شريفًا ...

أما الملك فهو فى نظر شهر زاد مازال الطفل المتاكس ، الخطر أحيانًا ، الذى يردد : « ليس فى الحياة من جديد ... استنفدت كل شيء ... ما قيمة عمرى الباقى ... لقد استمتعت بكل شيء وزهدت فى كل شيء » . وهو قد شبع فعلا من حياته الحيوانية العنيفة ، وملّها ، وأخذ يبحث عن الحكمة فى الأسفار ... إنه يريد أن يرى ما هو كائن ... ما هو حقيقى فى الوجود : « ... دعك من الخيال يا قمر . مضى ذلك العهد الساذج ... اليوم نريد الحقائق ... نريد الواقع ...

نريد أن نرى بأعيننا وأن نسمع بآذاننا ... » .

إن مسرحية « شهر زاد » غنية بتفاصيل أساطير الشرق ، ويزيدن غموض الشرق فيها ، ويزيد عليه ما تحويه المسرحية من التعقيد النفسي كما نفهمه في الغرب ... والحوار الذي يدور بين شهر زاد والملك والوزير — وقد لعب أدوارهم كل من « مرجريت ليتون » و« سيرجون جلجود » و« كارلتون هوبز » — هو حوار متألق بالذكاء والروح ، والملك على الرغم من ماضيه المخضب بالدماء ، مخلوق بائس كثير التأمل ، والوزير حائر بين فكرته المثالية عن حبه لشهر زاد وبين ولائه لسيده ... كل ذلك لو أنه حدث في عصر آخر وفي بيئة أخرى ، لكان من المفيد للرجلين أن يستشيرا طبيبًا نفسانيًا .

أما « شهر زاد » فهي في مثل صلابة « آن هوايتفيلد » في مسرحية شو « الإنسان والإنسان الأعلى » إلا أن سلوكها أكثر انطلاقًا ، فهي تتخذ عشيقًا زنجيًا في غيبة الملك ...

وهذا العمل بعينه كانت قد اقترفته زوجة سابقة ؛ وهو الذي دفع الملك إلى ممارسة هذا النظام الرتيب : « الزواج في المساء وإعدام الزوجة في الصباح » ، ذلك النظام الذي لم يخل به إلا موهبة شهر زاد القصصية ، ولم تعد تخشى الاضطرار إلى سرد القصة الثانية بعد الألف ، لقد قالت لعشيقها العبد عن الملك : إنه قد ألقى وراء ظهره بكل تجاربه الحسية والحيوانية . ويسألها العبد : وأين هو الآن ؟.. (وهذا العبد رجل بسيط ، لا يداوم سؤالها عمن تكون كما يفعل الملك والوزير) فتجيب : هجر الأرض ولم يبلغ السماء ، فهو معلق بين الأرض والسماء ...

وفي تلك اللحظة ... يكون الملك في خان أفيون ، مع الوزير حيث يعلمان بخيانتها ، ويقدم المشهد الختامي المتوتر ما يبدو لأول وهلة أنه موقف تقليدي ، ولكنه ينتهي نهاية غير تقليدية ، وتترك الشخصيتان الباقيتان لتشقا طريقهما في الحياة .

جريدة التايمز — لندن ٢٢ مارس ١٩٥٥ م :

شهر زاد لتوفيق الحكيم

تتناول « شهر زاد » التي أذيعت مساء أمس في البرنامج الثالث من إخراج « مستر كريستوفر سايكس » أسطورة ألف ليلة وليلة في طريقة : في الليلة التالية بعد الألف ، حين تكون شهر زاد قد فرغت من سرد كل قصصها ، ويكون إعدامها قد أرجئ إلى حين ، ويكون لهذه الأقاصيص تأثير مطهر على الملك شهريار ، فكأنه قد ولد من جديد ، فيقرر نبذ الحياة الشهوانية والحيوانية — حتى فيما يتعلق بشهر زاد نفسها — وهنا يحاول البحث عن أرض الواقع ، التي تبينها أول ما تبين من قصص شهر زاد نفسها . ويقوده بحثه الحير — مصحوبًا بموسيقى غريبة من وضع « مستر نورمان فـوربر كاي » — إلى الصحراء الشاسعة هو ووزيره قمر ... وأخيرًا إلى مجلس الأفيون . ويعترف شهريار أثناء رحلته بعلة قلقه وعدم استقراره : « اليوم نريد الحقائق ... نريد الواقع ... نريد أن نرى بأعيننا وأن نسمع بآذاننا ... » .

وقد استطاعت مسرحية الحكيم الأسطورية — فى ترجمتها الممتازة ، التى قام بها « مستر مايكس » — أن تحمل خلال بساطتها الجميلة مثل هذه المشاعر دون الانهيار تحت وطأتها ، وإن جمعها بين روح السحر ، والتأمل الفلسفى ، والإحساس بالمذلة العميقة ، أمام الأشياء الغامضة التى تحاول كشفها ، قد جعل من الإصغاء إليها تجربة نادرة ... على أنه لا يمكن للعقل الغربى إلا أن يصطدم بما فيها من غموض مقصود ورمزية غير مألوفة ، ففى حين أن القمر عندنا مؤنث نجد هنا أن « الوزير » قمر « مستر كارلتون هوبز » الذى يعنى اسمه القمر ، متيم بحب شهر زاد التى ترمز للشمس ... ويموت القمر « قمر » بطريقة محيرة ؛ لأنه لا يستطيع المضى فى إيمانه بأن الشمس تستحق العبادة ، فى حين أن سيده الملك شهريار يجب أن يستأنف بحثه عن الحقيقة ، معلقًا بين الأرض والسماء .

الممثلون اختيروا من الممتازين ، وأدوا أدوارهم خير أداء ، وستعاد إذاعة المسرحية يوم الجمعة ، وقد أدى « سير جون جلجود » دور شهريار أداء سيظل فى الذاكرة ، بتعبيره عن القلق والشك اللذين ينتابان الطاغية الذى زهد السلطان والجمال ، كما أبرزت « مس مرجريت ليتون » ما فى الملكة الجريئة شهر زاد من قوة المقاومة الذكية الفطنة .

شهر زاد

على مسرح « الكوميدى دى بارى » باريس — نوفمبر ١٩٥٥

للكاتب الفرنسى « ألكسندر أرنو »

عضو أكاديمية جونكور

لا ينبغى أن ننتظر من هذه المسرحية صورا سهلة للشرق ، مما يخطف البصر ، كما اعتدنا هذا التصور للبلاد النائية عنا . فتوفيق الحكيم الذى وضعها بالعربية هو نفسه شرقى . فسوء الفهم إذن ، أو الوقوع تحت تأثير سحر البلاد البعيدة أشياء لا توجد بالنسبة إليه فهو إذن يدخل مباشرة فى صميم قصص ألف ليلة وليلة ، كما ندخل نحن فى حكايات « أمى الأوزة » المألوفة لدينا ... فما من « ديكور » مفتعل أو متعمد للإدهاش يخفى عنه قيمتها الحقيقية وعمقها الإنسانى فهو لا يكتشفها من الخارج ولا من السطح ، ولكنه يغوص فيها ، وهى التى أرضعته وغذته آباء عن جد . فهو إذن يتمتع بسلطة وحرية فى اللعب بمادة ليست غريبة عليه ، يعجنها ويكيف أشكالها ، ويوفقها مع الأنغام الحديثة التى يملك كل منابعها ، ويستخدمها بأبسط وأدق وسائلها .

إن شهر زاد قد بذلت — فى مبدإ الأمر — كل ما لديها من مواهب وخيال قصصى ، لتنقذ حياة عذارى كان السلطان شهريار يذبحهن كل

صباح غيرة منه وحقدًا ، بعد أن خدعته زوجته مع زنجي ... ولكن شهرزاد انتهت بالوقوع في الشرك الذي نصبته ، بأن أحبت ذلك الذي اعتبرته في أول الأمر جلاد بنات جنسها . على أن قصصها وما أحدثته من فتح للنوافذ على العالم ، قد غيرت شهريار ، وجعلته يصبح — رويدًا رويدًا — رجلا آخر ، يملؤه القلق والرغبة في أن يسمو على نفسه ، وأن يخترق حجب الأسرار ، وأن يحيط معرفة بكل شيء . وهنا عقدة المأساة . فإن هذين الكائنين اللذين يواجه أحدهما الآخر اليوم ، ما عادا هما نفس الشخصين اللذين عاشا أول الأمر ... إن توفيق الحكيم الشاعر والكاتب المسرحي عالج هذا الموضوع الكبير الذي يمس جوهر الإنسان بآماله ويأسه ، معالجة مبعثها قوة داخلية لا تنضب ، وهو لا يستسلم أبدًا في التعبير لبريق الألفاظ ، ولا يستخدم غير أبسطها ، محملا إياها من المعاني وبما لا ندري من أي سحر ، ما يضيئها من الداخل ... إنه قد شيد أثرًا فنيًا من النور ، دون أن يلجأ إلا إلى ألوان من الظلال » .

بجماليون

على مسرح « الموزارتيون »

« سالزبورجر فولكزبلات » في ٨ ديسمبر ١٩٥٣

إن تمثيل مسرحية « بجماليون » يعتبر كسبًا فكريًا « للموزارتيوم » وللحياة المسرحية في النمسا ... وتوفيق الحكيم المؤلف المسرحي المعاصر ، لا ينمى في مسرحياته مسائل العصر ... وهو قد جعل من بطل الأسطورة في مسرحيته « بجماليون » بطل مأساة — عكس ما فعله « برنارد شو » من معالجته الموضوع على النحو الكوميدي — وتتميز مسرحية توفيق الحكيم بقيمتها الشعرية وثروتها الذهنية . وكان إخراج الدكتور جيزلاوبشر لهذه الرواية صارمًا بالغا في الصرامة . غير أن تلك الطريقة في الإخراج لم تمنع الممثلين من إظهار جهدهم . ووضع الموسيقى « جورهارد فمبرجر » المسرحية في إطار موسيقى ملائم كل الملاءمة . أما توزيع الأدوار فربما كان من الأنسب أن يختص الأساتذة الكبار بأدوار الآلهة في القصة . فيقوم « كارل بلوم » مثلا بدور « أبولون » إلى جانب « هيرتافيبر » في دور « فينوس » .. ولقد أبدى الجمهور — الذي ضم كل الشخصيات البارزة في المجتمع بمدينة « سالزبورج » وعلى رأسهم محافظ الإقليم دكتور كلاوس — أبلغ تحمسه وإعجابه بالمسرحية والتمثيل ... » .

« فينر زايتونج » في ١٢ ديسمبر ١٩٥٣ :

كان يبدو أن تمثيل « بجماليون » لتوفيق الحكيم ، على المسرح الأوروبي سيواجه منافسًا خطيرًا هو « برناردشو » — الذي عرض لنفس الأسطورة القديمة — ولكن توفيق الحكيم عالج موضوع الأسطورة الإغريقية القديمة بطريقة خاصة مستقلة وأصيلة مبتكرة . وهنا كانت المفاجأة : فقد نجح المؤلف المصري في إيجاد الصلة المباشرة بالمنبع الإغريقي ، بغير الالتجاء إلى الوسائل المفتعلة التي يتوسل بها كثير من الكتاب الغربيين . وربما كان مرجع هذا إلى أن الشرق كان له اتصال وثيق بالكلاسيكية الإغريقية قبل أوروبا . ولقد أبرز المؤلف المصري فكرة الكفاح الإنساني الخالد في الخلق ، هذا الكفاح الذي لا يقنع بما تم أبدًا ... كل ذلك في لغة تهمس بالتأمل والشعر وفي شكل جديد من الأسلوب الفني .

ولقد قام بعرض هذه المسرحية ممثلو أكاديمية « البورغتياتر » على نحو يسمو على المعتاد ... فنهض « كارل بلوم » بدور « بجماليون » في صراعه بين عمل الفن والحياة ، كما نهضت « إيريكا ليزا كوفسكا » بدور « جالاتيا » الصعب ... في حين أن « مرجريت جروبوفسر » و « لونزهابر كورن » قد لعبا دوري « إيسمين » و « نارسيس » على نحو آلي ... أما « هيرتافيور » و « ت . ويسلر » فقد ارتفعا حقًا إلى مرتبة آلهة الأولمب . وكان إخراج الدكتور « جيزاريش » متناسقًا رائع التأثير ، وموسيقى « جير هارد فمبرجر » بارعة في الإيحاء ، وقد كان تصفيق الاستحسان طويلًا حارًا .

« ذاي بريس » في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٥٣ م :

كان لقاء مهمًا ومفيدًا مع الكاتب المصري المعاصر « توفيق الحكيم » ذلك العرض الأول الذي شاهدناه على مسرح « الموزارتيوم » الكبير « لبجماليون » وهي مسرحية في أربعة فصول ... ألفها « الحكيم » بموهبة شعرية عالية ... كشف فيها عن الإنسان في سخطه الخالد ، وخلافه الدائم مع الآلهة ... وكان إخراج « جيزاريش » سليمًا ، متناسق العناصر في إطار المناظر الأنيقة التي صممها « جوستاف فارجو » ، والموسيقى التي وضعها « جيرهارد فمبرجر » ، وكان استقبال المسرحية والمؤلف الحاضر : على أقوى ما يكون من الحماسة ...

« فينر كورير » ٨ ديسمبر سنة ١٩٥٣ م

كان العرض الافتتاحي لمسرحية « بجماليون » لتوفيق الحكيم في القاعة الكبرى للموزارتيوم ، حدثًا ثقافيًا واجتماعيًا شاهدته الشخصيات البارزة في مدينة « سالزبورج » وإقليمها ... والمسرحية عميقة الموضوع ، تتخللها فواصل ملطفة مفاجئة ، من جوقة الفتيات التسع اللاتي يمثلن عرائس الوحي ، تحت أنظار « فينوس » و « أبولون » المشرقة على ذلك الصراع بين الفن والحياة . هذا الصراع الذي انتهى بموت « بجماليون » وجعل الآلهة تقول : « إن البشر يحطمون ما يخلقون من جمال ليبدعوا من جديد ... وقد استطاع إخراج الدكتور « جيزاريش » التعبير عن مأساة

الفنان العبقرى فى صراعه الخالد ، بأداء متسق فى مجموعه ... وقد حيا الجمهور — الذى كان يملأ المكان — المؤلف والممثلين بحماسة بالغة .

« ديموكراتش فولكربلات » فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٥٣ م :

« بجماليون » الفنان الملهم ... فى علاقته مع نفسه ومع العالم .. إنها ليست حالته وحده ؛ بل الذى يتكرر دائمًا ما دام على الأرض فنانون ... وقد أدى « كارل بلوم » شخصية المثال « بجماليون » أداء كشف عن مأساة العبقرية . كما أدى « لوثر هابر كورن » دور « نارسيس » أداء جمع بين الجمال والبساطة . وكانت « مرجريت جروبولر » ساحرة فى دور « إيسمين » ... أما الاستقبال الذى قوبلت به المسرحية من النظارة فكان رائعًا . وقد تلقى المؤلف شخصيًا (وهو يعتبر خالق المسرح الفكرى فى الأدب العربى) . هتاف الاستحسان من الجمهور المحتشد فى الصالة .

« سالزبورجر فولكزايتونج » فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٥٣ م :

اجتمعت فى مساء الأحد كل شخصيات الحياة الثقافية فى « سالزبورج » ، لتشاهد العرض الأول باللغة الألمانية لمسرحية « بجماليون » « لتوفيق الحكيم » ، فى القاعة الكبرى « للموزارتيوم » وقد امتلأت بالجمهور . وموضوع المسرحية عميق ... موضوع يمس الحد الفاصل بين ما هو إلهى وما هو إنسانى . وقد أخرجه الدكتور « جيزاريش » فأبرز ما فى داخل الفنان العبقرى من مأساة فى كفاحه

الخالد الذى لا عزاء فيه ، وقام « هانز هابنزولر » بدور « أبولون » فأظهر ما فيه من علو ممزوج بالسخرية ، وقامت « هيرتافير » بدور « فينوس » فأظهرت ما فيه من نضج وتجربة ... أما الملابس والمناظر فتذكر بالشاعر « جوستاف فارجو » ...

« سالزبورجر ناشرشتن » فى ٨ ديسمبر ١٩٥٤م :

« بجماليون » لتوفيق الحكيم مسرحية فى أربعة فصول . تدور حول حياة الفنان الإغريقى الذى أبدع تمثالا ووهبت له الآلهة الحياة ... وسحر مسرحية « الحكيم » لدى جمهور أوروبا يقوم بالأخص على ذلك التقابل بين العالمين ... العالم الإنسانى والعالم الإلهى !... وقد وضع « جيزاريش » هذه المسرحية فى إطار من الإخراج الدقيق . تجنب فيه كل ما يمس نواحى « الميلودرام » ، حدود « الكوميديا » ، وقد فهم ممثلوه أغراضه ومراميه فلبوا ونجحوا وكان المؤلف حاضرًا بشخصه فاحتفل به احتفالا حارًا حارًا !!...

مسرح توفيق الحكيم الفلسفي

للناقد الفرنسي جورج ألبير آستر

(عن مجلة « كريتيك » العدد ٦٦ — باريس ١٩٥٢)

بدأ الغرب يكشف الأدب الجديد الذى انبثق من النهضة العربية الإسلامية . وأجمل ما يراه من هذا الأدب هو من غير ريب نزعته الفريدة نحو الوحدة الشاملة ، والتركيب التام ... إن الجهد الصادق الذى يبذله الشرق ، على هدى من موازينه وتقاليده الموروثة لكى يساير ركب التاريخ ، وحاجته الملحة إلى عدم إنكاره أو الخضوع لمشيئته كل الخضوع — كما كان شأنه معه من قبل — نقول : إن هذا كله لم يكن ليخنق الأصداء التى تتردد عن تراثه القديم ، هذا التراث الذى نما على أرضه منذ آلاف السنين . إن نهضة الشرق الجديدة تتقدم مدفوعة بروح مفعمة بالإخلاص واليقين ، وإن جاهدت وتعثرت فى بعض الأحيان ...

و« توفيق الحكيم » الذى لم يتسن للقارة الأوروبية أن تعرف أفكاره حق المعرفة ، ينبغى أن ينظر إليه من هذه الزاوية ... إنه بغير ريب المفكر المجدد ، الذى يوشك أن يكون الوحيد فى مضماره . هذا الفنان المسرحى قد أضاف إلى الأدب العربى صورة جديدة من صور الفن . ذلك لأن المسرح « الفلسفى » يكاد أن يكون مجهولا من الحضارة الإسلامية قبل « توفيق الحكيم » ... وليس هنالك ما يشبهه فى هذا الباب إلا المسرح

المعروف بالنور (المسرح اليابانى القديم) ... والمقامات التى عرفت فى الأدب العربى والفارسى قد سمت « بالحريرى » . فى القرن الحادى عشر إلى المجد ، إلا أنها لا تتصل إلا من بُعد بما نسميه اليوم « بالتمثيليات المسرحية » . والأراجوز ، وهو فى صميمه تركى النشأة ، لا يعدو أن يكون مسرحًا من الظلال والأشباح .

البلاد الفارسية وحدها تستطيع أن تفخر (على تراث الأدب العربى على الأقل) بما لديها من مقطوعات « التازياز » التى ترجع إلى عهد بعد قريبًا ، والتى تشبه أن تكون لونًا من الأسرار الصوفية الغامضة ، تدور حول مصرع الإمام الحسين — هذا إلى أن هذه المقطوعات قد اختفت فى أوائل القرن الحالى عندما انهار كيان العصور الوسطى ، الذى طبع بلاد فارس بطابعه حتى عهد قريب ، واتصل المسرح الذى يتوفر المؤلفون الإيرانيون على خلقه بالأدب العربى حينًا ، وبحكايات من التراث القومى لم تزل تمثل على المسارح الإيرانية منذ القرن التاسع عشر حينًا آخر .

إن الدراما الحقة ، والتراجيديا على وجه الخصوص ، تبدو على جانب من التعارض مع روح العقيدة الإسلامية ، ذلك أنها تقتضى وجود مبدأ ثورى على نحو من الأنحاء ، كما أنها تبتعد عن العقيدة الدينية بعدًا ما . وحين يصطدم الإنسان بالقدر يتجدد فى نفسه الأمل بأنه ربما منحت فرصة لتغيير قدر محتوم ، بفعل من أفعال الإرادة الحرة (التراجيديا الحقة تنبع من الدين ، ولكنها لا تزدهر حتى توضع المقدسات نفسها موضع الشك والسؤال) ، وهناك أمثلة عديدة على صدق هذا القول ، فلن تدرك حقيقة « هاملت » إذا جردناه من أزمة الوجود الإنسانى ، ولم تكن

« فيدرا » لتوجد لو لم يشتعل القلق فى قلب راسين . جوهر الدين الإسلامى فى التسليم والاستسلام ، والنزعة الإنسانية العقيمة التى ينطوى عليها تقابلها نزعة الرضا والإذعان لمشيئة عالية . ومن ثم لم يتلاءم العنصر التراجيدى مع روح هذه العقيدة .

يضاف إلى هذا عقبة تتمثل فى اللغة العربية نفسها : فهى تنقسم إلى لغة للأدب وأخرى للكلام تختلفان فيما بينهما اختلافًا شديدًا . وقد ظلت الآداب العربية قرونًا طويلة وقفًا على خاصة « العلماء » ، تتنكر لكل شيء من أشكال الفن يراد به الاتصال بالجماهير اتصالا مباشرًا .

الأزمة التى يمر بها العالم الإسلامى اليوم تسمح بقيام مسرح أصيل ، تضطرب على خشبته ألوان الصراع والقلق التى تصاحب نهضته الحاضرة ، وتوافق وعيه الجديد ، وإلى جانب التأثير الغربى المحتوم عليه ، هناك تأثير من نوع آخر مستمد من الفكر الإسلامى نفسه ، فى صورته الجزيئة النبيلة . وليس يخلو من مغزى أن نجد الكتاب المصريين المحدثين يولون وجوههم نحو أرض اليونان ، ربما لأنهم يريدون أن يسيروا فى الطريق الشاق الذى قطعته حضارة البحر الأبيض المتوسط ، حضارة التركيب والوحدة الشاملة ، فيجدوا عهدًا جعلت فيه بلاد البطالمة من نفسها حارسًا أمينًا على تراث الإغريق ، وصانته من الاندثار ، ويذكرونا بعهد ازدهرت فيه حضارة الإسلام يوم أن نهلت من ينابيع الثقافة الإغريقية .

وثمة عامل ثالث لا يمكن أن نغفله من حسابنا : فعلى شاطئ النيل شعب قد طالما ذاق الظلم والهوان ، تتدفق من بين شفتيه ثروة خصبة من الأساطير والنوادر والحكايات ، وتمتزج بوجدانه الحى وشعوره الرقيق

بهذه النظرة يمكننا أن نقدر قيمة مسرحيات مثل « أهل الكهف » ، و « شهرزاد » ، و « سليمان الحكيم » . فهى إلى جانب قيمتها الجمالية الخالصة تقدم لنا تفسيرًا دراميًا للأزمات العميقة التى يعانيها العالم الإسلامى اليوم وللأحلام التى تراود مصر من قديم الزمان . إنها تمزج فى وحدة مبهمة بعض الشيء ، بين عوالم ما تزال متمايزة فتؤلف بين المقدسات والمحرمات وتجمع بين ما يملكه الشعب وبين ما تستأثر به خاصة المثقفين .

ترجع المسرحيات الأولى التى كتبها توفيق الحكيم إلى ما يقرب من نحو ثلاثين عامًا مضت . وقد وضع قبل الحرب الأخيرة رواية طويلة جعل موضوعها البعث الجديد فى مصر وأسماها « عودة الروح » وأما أعماله المسرحية التى نشر جانب كبير منها فى اللغة الفرنسية فهى تقوم على نظرة روحية الأفق للنهضة الفنية فى البلاد العربية . وليس هذا وحده هو ما يلفت النظر فى هذه المسرحيات الفلسفية ، فتوفيق الحكيم يرى أن النهضة واحدة من حيث اللسان العربى ، متعددة من حيث استعدادات كل شعب ومواهبه ، هذه النهضة يجب أن تعبر عن الأهداف الجديدة للأمة ، كما يجب أن تترجم عن الأحلام التى داعبت روحها آلافا من السنين ، حتى صبغت كيانها الفكرى بصبغة مميزة ، وطبعت شخصيتها بطابع فريد . ويعرض كاتبنا لوجهة نظره فى كتابه « تحت شمس الفكر » حيث يقول : « من هذا النيل خرجت أساطير البعث . وفى هذه الأرض الجميلة الدائمة الخصب ، نشأت فكرة الخلود وقتال « العدم » تشبثًا بهذه الأرض المحبوبة التى لم تخلق الآلهة جنة سواها ... » .

ألم يكن من هم هذه البلاد أن تكافح كفاحًا لا متناهيًا ضد الزمان

والمكان وأن تدخل فى معارك هائلة ـــ وإن تكن غير مجدية ـــ لتنتصر على كل الحدود والقيود ؟!... أليس هذا ما فعلته فى عهد الفراعنة الذين بنوا الأهرام ، وتشهد أجسادهم الباقية بشوقهم الملتهب إلى الخلود ؟!...

ألا نستطيع إذن أن نرسم فى أذهاننا صورة مصرية خالصة للمأساة (التراجيديا) وأن نتمثل الدراما التى تعبر عن هذا الصراع القاسى بين الإنسان من ناحية ، وبين الزمان والمكان من ناحية أخرى ؟ ألا نترجم عن هذا الجهد الذى لا يهدأ ولا يستريح ، على نحو ما تصورت يونان القديمة تلك اللعبة الجامعة بين الآلهة وبين المخلوقات .

الحق أن ذلك من شأنه أن يؤدى بنا إلى مشكلة رئيسية : فمثل هذا الصراع مع الزمان يتخذ بسهولة صورة الإنكار للتاريخ ، كما يصبح إغراء خطرًا بالانطلاق والخلاص ، وبالحياة فى ظل وجود عام تسيطر عليه مطالب وحاجات ملحة ـــ وهكذا ينبثق عنصر المأساة انبثاقًا ذاتيًا ، وكان من ذلك أيضًا ـــ ولم تغب هذه النقطة عن بال كاتبنا ـــ محاولة الربط بين الأدب وبين حياة الشعب حيث يجعل من الأسطورة ـــ لا البلاغة ـــ مصدر وحيه وإلهامه ، ويتيح الفرصة للمقدسات السماوية لكى تواجه ألوانًا من المحرمات مواجهة واقعية مباشرة .

هكذا وجدناه يعنى عناية بالغة بقصص « ألف ليلة وليلة » ، وبالقرآن ، ويعدهما مصدرين خطيرين للإلهام الفنى ... ولقد تأثر فن « توفيق الحكيم » فى مراحل تطوره الأولى بمؤثرات عديدة . من رمزية « مترلنك » التى انقضى عهدها إلى « الدراما البرجوازية » . وهذا ما جعلنا نكشف عن مذهبه الأصيل فى ثلاثة أو أربعة من مؤلفاته الخالدة :

« شهر زاد » ، أهل الكهف ، سليمان الحكيم » . كما دفعنا هذا أيضًا إلى النظر فى مسرحيتين تنفردان بطابع خاص له هما : « أوديب » و« بجماليون » .

من هذه الناحية نرى صاحب « المسرح العربى » قديرًا فى إنشائه لمسرحيات تعتمد على الحركة الداخلية ، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بالقصة التى تبعث منها : وما الأسطورة ها هنا إلا الرداء الخارجى ، فتوفيق الحكيم يبحث فى طبيعة الحياة ، ويتفكر فى ماهية الوجود ، على نحو لم يسبقه إليه أدب قديم أو حديث .

وتسنح المناسبة الطيبة « لتوفيق الحكيم » عندما يردد حيرة الشرق فى سؤاله الخالد : هل ينبغى أن نرى الوجود كأنه حلم من الأحلام ؟... وكيف يتسنى لنا الخلاص فى هذه الحالة ؟... وما عسى أن تجدى فى عصرنا الراهن حرية الحالمين ، وهى تحمل فى تضاعيفها الغربة والخطورة ، والمفارقة ؟!... وما قيمتها بالقياس إلى الواقع والتاريخ ؟!...

الهدف الأساسى الذى يشغل أصحاب الكهف ، ويعصر قلب « شهريار » هو التحرر من سلطان الزمان ، والانطلاق من سجن المكان .. هم يتمنون لو استطاعوا أن يخلصوا من طغيان أفعالهم ، يعذبهم الشوق إلى الحياة فى ظل عالم لا أثر للظلم فيه ؛ بل إنهم يمقتون فكرة الحد « نفسها » ويتوقون إلى لقاء الموجود الكامل الذى لا يحده قيد بعيدًا عن أسوار هذا العالم وضروراته .

لا أثر للتصوف فى هذا الاتجاه : إن أبطال « توفيق الحكيم » يرتابون فى القوة الغيبية أبلغ الريب ، وليس من همهم أن يفنوا فى مبدأ روحانى علوى

فلا يزال الإنسان يواجه مصيره الغامض القاسى ، فلا يجنى من هذه المخاطر غير حال عجيبة من التناقض تجعله معلقًا بين السماء والأرض ، ولا تهبه الحرية إلا إذا تكلف نوعًا من اللامبالاة ، فى جو من السخرية المرة التى تقضى عليه بالموت والضياع .

هكذا نجد أنفسنا إزاء مسرح تدور مآسيه فى دائرة من العذاب الفظيع ، وتسمى شخصياته إلى مثل بعيدة المنال .

ليس ينبغى أن نضل الطريق على أى حال : فالصراع الناشب بين « الوجود الأسطورى » و« الوجود التاريخى » لا يسيطر على زمام هذا المسرح إلا أنه يعبر عن الأزمة التى تسود العالم العربى والإسلامى فى القرن العشرين . « توفيق الحكيم » يعيش فى صميم المشكلة التى يكابدها الشرق الحديث : فالمسرح لديه يدور حول مصير الفكر الذى يريد أن يكون إنسانيا ...

والحق أن هذه المسرحيات تنطوى أخيرًا على ميزة ذات دلالة هامة . إن كاتبها لتمتد سخريته فلا ترحم أحدًا — إنها لتجرى على لسان شخصياته ، عذبة حينًا ، مرة فى أغلب الأحيان ، تتهكم بنفسها على طموحها ، وعلوها واعتدادها بنفسها .

من هذه الناحية يعد توفيق الحكيم شاهدًا على الاتجاه إلى التخلى عن الحياة الأسطورية والسعى نحو الحياة الواقعية والتاريخية (بينما يتجلى عكس هذا الاتجاه لدى الكثير من كتاب العرب) وهو فى رأينا يعبر أصدق تعبير عن الوعى المضطرم فى كيان مصر الناهضة وعن موقفها فى العصر الحديث بين الأعاصير التى تثور من حولها وتوشك أن تمزقها ، واختيارها السير فى

موكب الزمن والتاريخ ، معرضة عن الحياة بين أحلام الخرافة والوهم القاتل ، ولعل العالم العربى قد أدرك الصواب حين اهتم بهذه المسرحيات ، وتبين خطرها العظيم بالنسبة إليه ، فقد وجد فيها مرآة صادقة للأزمات العميقة التى تضطرب فى وجدانه ، والآمال العزيزة التى تخالج قلبه .

لقد كان الهدف الحقيقى فى « أهل الكهف » هو إبراز المشكلة الأساسية ، مشكلة الزمن .

ولا شك أن هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف قد تحرروا رغمًا عنهم من سلطان الزمان وسطوة التاريخ . إنهم يحاولون أن يحيينوا هذه الفرصة التى أتاحها لهم القدر ، أو الأسطورة إن شئنا (وهى فرصتهم إلى الخلود) إنهم يستيقظون من نومهم بعد ثلاثة قرون فيحاولون أن يستهينوا بقدرة الزمان ، وأن يروا فيه شيئًا عقيما ضائعًا ، بل يذهبون لإنكار وجوده ألبتة . وهكذا نجدهم يدافعون بسخرية مرة عن الفكر السرمدى ، والخلود الأسطورى ، اللذين تنفيهما حقائق الواقع .

ما قيمة الحقائق العقلية التى يفزع بها مرنوش ؟!... وما جدوى الصرخات اليائسة التى يطلقها ميشلينا ، هذا العاشق الخالد لبريسكا الفانية ؟... وهل يُغنى وجود محبوبة جديدة تحمل اسم جدتها التى ماتت منذ ثلاثة قرون ، كما تحمل ملامح وجهها ؟!... هل يغنى عن الواقع شيئًا ؟!... إن « يمليخا » وهو الراعى الساذج البرىء ، لا تخدعه انفعالات الشعور عن الواقع الملموس : إنا أشقياء ... أشقياء ... نحن ثلاثتنا وقطمير معنا ... لا أمل لنا فى الحياة إلا فى الكهف » . « فلنعد إلى الكهف ... هلم يا « مرنوش » !؟... فلنذهب إلى عالمنا ؟ » .

ثم يقتنع العقل بدوره فى شخص مرنوش المفكر حيث يقول : « إن مجرد الحياة لا قيمة لها ... إن الحياة المطلقة المجردة عن كل ماض وعن كل صلة ، وعن كل سبب لهى أقل من العدم » .

وهكذا يقضى على الوهم الذى طالما داعب خيال الشرق ، وزين له أنه يمكن أن يحيا حياة كأنها الأسطورة السرمدية ، حياة خارج حدود الزمان ؛ ثم يأتى دور التحول الأخير فى نفس العاشق المسكين ميشلينا ... إن الأميرة بريسكا ، التى تشبه أخرى أحبها قبل أن يعانقه النوم الطويل ، لا يمكن مع ذلك أن تشبهها كل الشبه ... فسرعان ما ينكشف له وجه الضلال فى حبه القديم الجديد . ها هنا حكم صادر بالموت على الفكرة الميتافيزيقية الكبرى التى عرفت عن الشرق العربى الإسلامى ، وعن نزعته التى تميل به إلى إنكار الجزئيات ، وشرعته التقليدية التى تجعله ينظر إلى الظواهر الواقعية وكأنها حلم من الأحلام ، ويعد الحقيقة الخالدة مبدأ غيبى غير منظور وكأنها الحقيقة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم ، فإذا نظرنا من الزاوية الجديدة التى يقدمها لنا توفيق الحكيم وجدنا أنه لم يبق لنا غير عالم التاريخ . وغير الزمن الذى تحدده الولادة الأولى والموت الأخير من طرفيه ، لن تستطيع الأسطورة أن تقف أمام سلطان الزمن والتاريخ ؛ (أى الواقع) ، وإن حسبت أنها انتصرت عليه فقد خدعت نفسها بالباطل ، ولا أمل للإنسانية إن أفلتت من أسر الزمان ... وسوف يحكم على مصير بالفناء . أو تقيض لها الحياة تبعًا لموقفها من التاريخ !..

وجملة القول : إن « أهل الكهف » تقرب بمعطياتها من موضوع أكبر من موضوعات الفكر الإسلامى . وتتصل بهذه اللعبة الشعبية ، ونقصد (السلطان الحائر)

بها الأراجوز التركى ، التى هى لعبة الظل مع الحياة — إنها تحطم آمالا شاعرية كثيرة . وإن القارئ يحكم فى نهاية المأساة بضآلة الفرصة التى بقيت لهؤلاء الفتية الذين أغلقوا باب الكهف عليهم فماتوا ، وهم يواجهون هذا السؤال القاسى : هل يتيح لهم القدر أن يبعثوا من جديد ، وأن يعيشوا فى ظل الديمومة الأسطورية التى خبروها من قبل ؟!.. ويأمر الملك — بعد أن ينتهى كل شىء — بأن تدفن معهم المعاول التى تتيح لهم إذا ما بعثوا من جديد — أن يعودوا إلى عالم الأحياء ولكن هذا لا يغير شيئا من الحقيقة : لقد استسلموا للموت فى هذه المرة بمشيئتهم ، وطرحوا عنهم وهم الخلود . وإذا كانت « بريسكا » الثانية قد أخذت بسحر عالمهم المجهود ، فآثرت أن تقبر حية معهم ، فإنها قد فعلت ذلك مجردة من كل أمل فى العودة أو رجاء . وفى نفس الوقت يسدل الستار على عهد القداسة . ولا تبقى بقية الشك فى زواله :

بريسكا : « ومهمة أخرى يا « غالياس » إذا علمت الناس قصتى وتاريخى فاذكر لهم كما أوصيتك ...

غالياس : « وهو يهم بالخروج » إنك قديسة ؟...

بريسكا : كلا ... كلا ... أيها الأحمق الطـــيب ليس هذا ما أوصيتك .

غالياس : إنك امرأة أحبت ...

بريسكا : نعم .. وكفى !.. « ويخرج » غالياس « وتبقى وحدها ويغلق الكهف عليها وعلى الموتى » .

* * *

نفس هذه الموضوعات نجدها مبثوثة فى « شهر زاد » ترجمت هذه المسرحية إلى الفرنسية فى عام ١٩٢٦ فسحرت بشاعريتها وأسلوبها الفنانى « جورج ليكونت »(١) و« ولنوفى بو »(٢) وربما أخذا بهذا الجمال الشاعرى عن البحث فى دلالتها الحقيقية ، وإدراك قيمتها العالية .

ذلك أن ما يبقى فى القصة القديمة مظهرًا عرضيًا أو إطارًا خارجيًا يصبح عند « توفيق الحكيم » مادة العمل الفنى وجوهر الحقيقة نفسها : فهنا نجد التعارض الحاد بين « شهريار » و« شهر زاد » والصراع الدائر بين « الوجود اللامتناهى » الذى يشيع فى جو الأسطورة وبين مطالب الحياة المحدودة وضرورات الواقع القاسية .

إن « شهريار » الأمير الذى لا يرتوى ظمؤه ، ولا ينتهى طموحه ، يلوح لأعيننا كأنه « فاوست » وقد تلفح فى مسوح شرقية و« شهرزاد » الراوية تخطر أمامنا كأنها سر الأزل . إنها هى الأسطورة ، هى الانطلاق من أسر الزمان ، وصورتها تقترب فى أذهاننا من رمز القدامة الخالدة : « إيزيس » إلهة مصر القديمة التى ترفرف روحها القلقة على الدوام . « أنا كل ما كان ... كل ما يكون .. كل ما سيكون ... قناعى لم يكشفه بعد إنسان ... »

ويبدو لنا أننا لا نخرج عن مفهوم هذه القصة العجيبة حين نجد فيها تعارضًا أساسيًا بين « الوجود الميتافيزيقى » وبين « الوجود الواقعى » ؛

———

(١) عضو الأكاديمية الفرنسية .

(٢) مؤسس مسرح « الأوفر » بباريس « المترجم : عبد الغفار مكاوى » .

يكاد يستعصى على الحل .

الحق أن شهريار يحيا حياة ميتافيزيقية بحتة ، لكن لأية غاية ؟ إنه لم يعد يستطيع أن يعاود حياته البشرية — « إيزيس » و« شهر زاد » يحتفظان بسر أبى الهول الخالد : الخلاف الغامض بين الأسطورة والحياة . والإنسان بدوره لا يستطيع أن يهزم الزمن إلا على حساب حياته نفسها .

« لا فائدة من نزال الزمن » وحين يهتف مارتوش قائلا : « لأننا أحلام ... نحن أحلام الزمن » يكاد شهريار أن يردد صداه : « إن الزمان يجثم على صدرى » . ويهيم الملك من بلد إلى بلد ، مأخوذًا بسحر اللانهاية التى تنعكس فى عينى « شهر زاد » ، إنه لا يجنى من بحثه وتطوافه فى الآفاق إلا فقدان ذاته ، وضياع الوجود الحق الذى جاب الأفق بحثا عنه : « أو لست كالماء يا شهر زاد ؟... صحبتنا دائما كالماء ؟... نعم ... ما أنا إلا ماء ... هل لى وجود حقيقى خارج ما يحتوى جسدى من زمان ومكان !...

ومع ذلك « فسرعان ما اتخذت حياتى شكل ما احتوى جسدى من زمان ومكان » . ونعود فنقول : إنه من الخطأ أن ينظر النقاد ها هنا فلا يجدوا إلا التعبير عن حنين غامض « رومانتيكى » إلى الأوطان : إن مقوماتنا الذهنية تقف عاجزة (أو هى كذلك حتى الآن) فى كل ما يتصل بكتاب الشرق النابغين (وأشد ما نخافه أن يحاول امرؤ التقريب بين أعمالهم وبين فلسفتنا الوجودية الحديثة ، تقريبا من شأنه أن يغفل التاريخ

من حسابه) فهنا تصبح المشكلة التي تقابلنا هي قيمة « الواقع » نفسه — كما يحلو للكتاب السرياليين في الغرب أن يقولوا — كما واجهته أنفس حاولت أن تتسامى على الواقع منذ آلاف السنين …

ومن أبلغ الأمور دلالة على صدق ما نقول أن هذه المشكلة منبثقة في جميع الأعمال الدرامية التي دبجتها يراع كاتبنا (وشخصياته تطوف حولها على الدوام) .

وأهم ما هنالك هو إبراز هذا الشعور بالفقدان الذي يعانيه أبطال توفيق الحكيم ، إذ يستولي عليهم القلق الجارف نحو المطلق واللامحدود (فإلى جانب شهريار ، وهو شهيد حلم لا عمر له بعثه الشرق في خياله ، نرى « قمر » الذي يظل أبدًا المخلوق البسيط ، وينصرف في نطاق الشهوات الجزئية ويحب شهر زاد كما يحبها سائر الناس ، وعلى مقتضى القانون البشري العام ، بينا العبد الأسود تتجسد فيه الصور اللامعقولة من الحياة …)

ليس إذن من قبيل الصدق أن نجد الصراع ينتهي إلى التجربة المحتومة : تجربة شهريار لا يحرك ساكنًا حين يرى الملكة تخونه خيانة مفضوحة مع العبد الأسود — « شهريار » الذي ارتفع عن كل شهوة أرضية ، وتجاوز حدود الغيرة التي جعلته يومًا ما رجلا كسائر الرجال . الذي حكم عليه أن ينتهي إلى حيث قاده السراب الخادع : إلى القرار السحيق الذي لا نجاة منه . ولم لا ؟!… وهذه « شهر زاد » التي ألحت عليه بالبرهان قد

أصبحت عاجزة عن أن تعيده إلى الأرض « شهريار !… أنت رجل هالك … »

جملة الرأي أن « توفيق الحكيم » يقدم لنا مصر الجديدة ، التي تختلف عن التي تمثلتها أسطورة « إيزيس » ، والتي كانت تسير معصوبة العينين . يقدم لنا مصر التي تطرق باب الواقع والتاريخ ، وتقف موقف الاختيار الحاسم لمصيرها . ويبدو أنها منذ ذلك الحين قد عرفت دورها التاريخي في موكب الحضارة .

* * *

وعلى الرغم مما يشوب الترجمة من جمود في بعض أجزائها ، فإن مسرحيات مثل « بجماليون » ، و« سليمان الحكيم » ، و« الملك أوديب » ، تقدم لنا نفس المشكلات التي رأيناها في زميلاتها ، كما تتمثل فيها ألوان الصراع والتناقض بعينها . وهذا المسرح كله يعرض لنا نماذج من الوجود تتحدد ، لا بالنسبة إلى « الخير » و« الشر » ، بل بالقياس إلى « الواقع » و« الحلم » . وهل تهم الصورة التي يتخذها الحلم في هذا المجال ؟!…

وفي ظلال الوعي الذي يغمر بلاد الشرق الإسلامي في هذه الأيام ، نجدها تطرح عنها أسباب الطموح التقليدي التي جعلت الروح الشرقي يسعى نحو المطلق : يتمثل في الحكمة الكاملة عند الملك سليمان » وفي الفن المطلق عند بجماليون ، وفي الحقيقة الرهيبة لدى « أوديب الملك » .

يمكن القول بأن كل شيء يجرى هنا فى عالم لا تزال مشكلة التعارض بين المقدسات والمحرمات قائمة فيه ...

وفى مفترق الطرق نرى « توفيق الحكيم » الكاتب المسرحى المعاصر ، شاهد صدق على هذا الشعور الذى يجيش بالأزمات والمتناقضات فى ضمير الشرق الإسلامى . لدى هذا الكاتب تتم معجزة التحول العظيم فى ثوب مسرحى . إنه التحول المحتوم من مجال المقدسات إلى مجال إنسانى محض ، ومن عالم يسرى فيه الروح الغيبى وتسوده أحلام ما وراء الطبيعة إلى آخر يساير موكب التاريخ . إنه تحول تجاه الواقع ... الواقع الحى ...

توفيق الحكيم

بقلم : كلاديا أود — فاسيليفيا

[عن مجلة « الأدب السوفيتى » موسكو — عدد فبراير ١٩٥٧]

بدأ « توفيق الحكيم » يظهر كأحد كتاب مصر الكبار منذ العقد الثالث لهذا القرن ، وهو ينتمى إلى تلك الفئة من الكتاب العرب التى أنتجت أدبها بلغتين ، فهو قد تلقى تعليمه العالى فى فرنسا ، وقضى فيها سنوات عديدة ، وبدأ يكتب بالعربية والفرنسية معا ، وبعض إنتاجه العربى مترجم عن الأصل الفرنسى(١) .

وقد وصف بعض النقاد توفيق الحكيم بأنه كاتب متأرجح إشارة إلى تردده وتدقيقه فى البحث عن الحلول للمشكلات ذات الأهمية الاجتماعية ، وقد ذهب فى بحثه هذا إلى آفاق بعيدة ، محاولا أن يصل إلى كنه مهمة الكاتب ، وأن يؤكد وظيفة الفن فى الحياة العصرية ، ومعالجا قضية تشكيل نظرة معاصريه فى اتجاه تقدمى ، ومؤكدا فكرة الاستقلال الوطنى،وأن بعض مؤلفاته « كعودة الروح » و« يوميات نائب فى الأرياف » لتستحق مكانا عاليا فى الأدب العالمى الحديث .

---

(١) مسرحية « أمام شباك التذاكر » .

و« عودة الروح » تعتبر إلى حد ما سيرة ذاتية . فنحن نجد البطل فيها قد ولد في مدينة دمنهور ، أبوه فلاح ميسور الحال يشغل منصبًا بارزًا في المدينة ، وأمه منحدرة من أصل تركي ، تكره الفلاحين وتحاول دائمًا أن تثبت تفوقها عليهم . على حين كان « والد توفيق » يبدى إزاءهم نوعًا من الضعف ، وكان ذلك سببًا للنزاع العائلي . أما الفتى فقد أحب الفلاحين ، وقد شهد عملهم الشاق ، وعرف حرمانهم ، وأدرك ما في موقف أمه منهم من عدم إنصاف ، فأخذ ينسلخ عنها رويدًا رويدًا .

وكانت طفولته شقية . وذكرياته السعيدة عن تلك الفترة من حياته مرتبطة بفرقة من الممثلين المتجولين الذين كانوا يزورون داره بين الحين والحين : لقد كانت طلاقة الممثلين وأغانيهم حبيبة إلى الفتى ؛ وربما كان ذلك أصل اهتمامه بالفن .

وفيما أقبل من الأيام : أرسل أهل الفتى ابنهم إلى القاهرة ليتلقى العلم ؛ فأقام مع أقارب له في أسرة محدودة الموارد ، ومع ذلك فإن تلك الحياة التي كانت مزيجًا من العمل والعوز في بيتهم ؛ كانت أحب إليه من الحياة في بيت أبيه .

وقد بدأ الفتى محاولاته في الأدب وهو ما يزال بعد في المدرسة ، وقد وصف تلك الأيام في كتابه « زهرة العمر » وهي قصة أخرى يغلب عليها طابع السيرة الذاتية ، وقد كتبها بشكل رسائل وضمنها آراءه في الفن والأدب ، وكشف فيها على الأخص الطريق الذي سلكه نحو التأليف .

لقد كانت محاولاته الأولى تمثيليات وضعت لأولئك الممثلين المتجولين . فهو يكتب عن تلك الفترة من حياته : « كانت بدايتي الفنية بين

الممثلين ، أولئك الذين يسمونهم عندنا « المشخصاتية » والحق أنهم في مصر ليسوا بعد من الطوائف المحترمة . لقد كان ملحن رواياتي « كامل الخلعي » يجلس معي على قارعة الطريق يدندن وهو عاري القدمين إلا من قبقاب خشبي ... تلك كانت بدايتي الفنية والأدبية(١) .

ولم يرض ذلك الاهتمام بالأدب والفن والدى الفتى اللذين أرادا له أن يدرس الحقوق . وقد أشار عليهما بعض الأصدقاء فأرسلوه ليتلقى علومه في فرنسا ، مؤملين أنه عندما يحاط بجو جديد ويهتم بمسائل جديدة ، قد يسلو بها عن الفن وينصرف إلى ما تمناه له والده من حياة قانونية قضائية محترمة ، ولكن خاب ظنهم فتوفيق لم يهتم بالقانون ، وقد كتب لأحد أصدقائه يقول : (إني في عرف القانون محام . ولكن أي محام ؟!... لقد كانت فجيعة لأبي المسكين أيام أن كان يسمع ويرى أني أنسى صفتي كمحام ، وأنحشر في زمرة الممثلين » .

وكان « توفيق الحكيم » في الواقع قد بدأ يكتب مسرحيات بالفرنسية ، وكان بعضها قد بدأ يخرج على المسارح الفرنسية .

وعندما عاد (الحكيم) إلى مصر ، عين نائبًا في الأرياف ، وفي منصبه هذا — وهو ذو الملاحظة الدقيقة لتفاصيل حياة شعبه — أتيح له أن يجمع ثروة من المواد لكتاباته المقبلة ، وقد نقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث اشتغل في وزارة المعارف وتفرغ في السنوات الأخيرة للإنتاج الأدبي .

---

(١) لقد عدنا من الاستشهادات المأخوذة عن « توفيق الحكيم » إلى النص العربي كما ورد في مؤلفاته ، وقد يختلف بعض الشيء عن النص الإنجليزي الذي ترجمنا عنه هذا المقال : « مجلة الشرق » .

ولم يكن التطور الأدبى لكاتبنا تطورًا بسيطًا ، فهو قد وصل إلى أوربا فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، فى الفترة التى احتدم فيها الصراع فى مجال الأدب والفن بين اتجاهات الواقعية والاتجاهات الشكلية المتعددة ، وكانت تلك سنوات التكوين بالنسبة لكاتبنا . ولم يكن موقفه فى البداية واضحًا تمامًا فقد شعر بنفسه منجذبًا نحو التيارات الحديثة للواقعيين الفرنسيين ، لكنه فى الوقت ذاته كان يرى فى اتجاهات « المودرنزم » منبعًا للخلق الجديد فى الفن وقد كتب فى « زهرة العمر » عن تفتيشه وبحثه أثناء إقامته فى باريس : « أنا لا أستطيع أن أقول مع الثائرين فليسقط (القديم) لأن هذا القديم أيضًا جديد علىّ فأنا مع أولئك وهؤلاء » ...

وتابع « توفيق » تفتيشه فدرس الرسم والموسيقى ، محاولا أن يعثر على ارتباطاتهما الداخلية بالأدب . وقد كتب عن زياراته لمتحف اللوفر يقول : « كل لوحة فى الحقيقة ليست إلا قصة تمثيلية داخل إطار ، لا داخل مسرح ، تقوم فيها الألوان بمقام الحوار ، إنى لأكاد أصغى إلى أحاديث الأبطال وهم على الموائد فى أفراح (قانا) لوحة « فيرونيز » ، أكاد أسمع ضجيج الحاضرين وصياح الشاربين ورنين الكئوس وخرير النبيذ يفرغونه من دن إلى دن. إن طريقة إبراز كل هذه الحياة بالريشة تقرب من طريقة إبرازها بالقلم . إن أساس العمل واحد فيهما : الملاحظة والإحساس ، ثم التعبير بالرسم والتلوين ، بل إن الروح أحيانًا يتشابه » .

وإننا لنشعر فى مؤلفات الكاتب فى تلك الفترة بميل نحو الواقعية . ونجد صورة متعددة الألوان للحياة نابضة ، ولكن ملاحظته للحياة كانت

لا تزال تصدر ، لا عن العقل ، بل عن المشاعر ، كما هو الحال عند الثائرين .

وفى سنة ١٩٣٣ م أصدر رواية « عودة الروح » التى كان قد ألفها فى أواخر العقد الثالث من هذا القرن عندما بدأ يتجلى فى الأدب المصرى تيار جديد . وكانت جدة هذا التيار هى المصدر الذى استمد منه هذا التيار اسمه — التجديد — وكان فى واقع الأمر ، فى تلك السنوات ، تيارًا واقعيا يعكس تطور الوعى الوطنى فى البلاد .

إن الرواية تصف الانبعاثة الأولى لحركة التحرر الوطنى فى مصر فى ١٩١٩ م . وهو لم ير فى تلك الحركة فى عام ١٩١٩ م أن المصالح الطبقية للشعب وللبرجوازية لم تكن متطابقة .

وكان القبض — فى ٨ مارس ١٩١٩ م — على عدد من أعضاء الوفد الذى أرسل لحضور مؤتمر « فرساى » السبب المباشر فى قيام المظاهرات التى شملت مصر بأسرها فى وقت واحد . وكانت المطالب الرئيسية للوفد المصرى — وهو اللجنة التى قادت حركة ١٩١٩ — هى الاستقلال التام لمصر ، وسحب القوات البريطانية ، وجلاء الإنجليز عن السودان . وكان تحقيق هذا البرنامج يتيح للبرجوازية فرصة واسعة لاستغلال ثروة البلاد وشعبها . وكانت البرجوازية بحاجة إلى قائد قادر على توحيد البلاد ...

والمؤلف يعتبر هبة ١٩١٩ م بمثابة عودة روح مصر القديمة ، فهو يكتب : « لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب ، والمستعد للتضحية » — إذا أتى بمعجزة أخرى غير الأهرام » ...

ربما كانت « عودة الروح » أكثر المؤلفات العربية غنى بالألوان فى العقد الثالث من هذا القرن فالمؤلف يصف فيها حياة الفلاحين ، ويهاجم الظلم الاجتماعى الذى كان سائدًا فى مصر فى تلك الأيام ، غير أنه يبالغ كثيرًا فى دور سعد زغلول فيكتب : « وها هى ذى مصر التى نامت قرونا تنهض على أقدامها فى يوم واحد . إنها كانت تنتظر ... تنتظر إبنها المعبود رمز آلامها وآمالها المدفونة ينبعث من جديد ... وبعث هذا المعبود من صلب فلاح » .

فالواقع أن المبادءة فى الكفاح ضد السلطة المحتلة كانت للشعب لا لسعد زغلول . إنه الشعب الذى عبر عن إرادته التى لا تتزعزع ، والذى تحمل التضحيات التى لا آخر لها فى هبة ١٩١٩ .

وقد نشر « توفيق الحكيم » فى الفترة ذاتها مجموعة من المسرحيات يلجأ أبطالها جميعًا إلى الهرب من صعوبة الحياة .

ففى رواية « أهل الكهف » استخدم أسطورة « الشبان السبعة » الذين رقدوا فى الكهف ٣٠٠ سنة ، وعندما استيقظوا لم يجدوا للحياة معنى ؛ لأن كل ما كان يربطهم بها ، من أحباء وأصدقاء ، كانوا قد ماتوا منذ زمن طويل ، فما كان منهم إلا أن عادوا إلى الكهف ؛ وإلى اليوم لم يغفر النقاد التقدميون للمؤلف إنهاءه لروايته على هذا النحو ؛ لأن العام الذى كتبت فيه هو عام ١٩٣٣ ، حينما كان على رأس الحكومة المصرية الحاكم الرجعى البغيض صدقى باشا . لقد رأى أبطال « أهل الكهف » دستورًا ينتهك ، وسجونا تزدحم بنازليها ، واقتصاد البلاد يدمر ، والفقر ينتشر ، ومع ذلك فقد عادوا إلى كهفهم ، مقدرين إنه لا جدوى من

محاولة تغيير الوضع القائم .

وشهد عام ١٩٣٧ نشر « يوميات نائب فى الأرياف » بما فيها من وصف صادق دقيق للحياة فى قرية نائية ... إنها تصور الموظفين الصغار فى الأرياف بكل جهلهم وبكل آرائهم المحافظة الجامدة ، وتبين عجزهم ورفضهم لفهم حياة الفلاحين الذين يساقون أمامهم إلى المحاكم .

والحالات التى يعرضها علينا فى المحكمة حالات نموذجية . وأكثرها يتضمن لمسات كوميدية ، ولكنها فى الوقت ذاته درامية كحالة شخص جريمته أن يملك كلبًا بلا رخصة ، والأشخاص الذين يغسلون ملابسهم فى مياه الترعة ، ومشابهها ، والمتهمون لا يعترفون بخطئهم ، بل هم يعتبرون الغرامات التى تفرض عليهم كعقوبة من السماء . والمؤلف يعترض على القوانين المستوردة من الخارج والتى تفرض على الشعب فرضًا .

وفى السنوات التالية تناولت كتابات « توفيق الحكيم » عددًا من القضايا الاجتماعية الحيوية ، كالكفاح من أجل الاستقلال الوطنى ، ومساوئ الظلم الاجتماعى ، وتحرير المرأة(« الرباط المقدس » ، « عصا الحكيم » ، « تأملات فى السياسة ») . ومع ذلك فالكاتب لا يكشف السبب الأساسى للمتناقضات الاجتماعية ، وكثيرًا ما ينتهى إلى نتائج خاطئة . وكما قال أحد النقاد العرب : « إنه يضع نفسه داخل سور يحجبه عن العالم الخارجى ، عالم الشعب ؛ ويظل يحوم بين خيالات غامضة وأفكار عارية » .

إن نظرة « توفيق الحكيم » ليست دائمًا نظرة واقعية فهو أحيانًا يدافع

عن « الفن للفن » ويؤكد فى أحيان أخرى أن « الفن هو الحياة نفسها » .
بيد أن خدماته ، مع هذه التحفظات ، للأدب الواقعى المصرى الحديث ، معترف بها من الجميع . وهو أول من عالج فكرة الكفاح من أجل الاستقلال . وأول من ساعد على خلق الطراز الجديد من القصة الاجتماعية ، وأول من أدخل اللغة العامية فى الأدب .

وقد كتب الكاتب التقدمى « أحمد بهاء الدين » فى مقدمته لكتاب « تأملات فى السياسة » : إننا نحن الكتاب الشباب نستطيع أن نتعلم منه الشيء الكثير . فقد كان « توفيق الحكيم » يكتب غير متسرع ولا متعجل ، وينفق فى كتبه سنوات طويلة قبل أن ينشرها . ونحن إذا كنا نختلف معه فى كثير من الآراء ، فكلنا نعترف بخدماته للأدب العربى وخاصة فى « مجال الدراما المصرية » والرواية الواقعية .

توفيق الحكيم

وعمله الأدبى

[بقلم أ . بابا دوبولو]

يحتل « توفيق الحكيم » مركزًا رئيسيا فى النهضة الأدبية التى أذكت حركة الإنشاء والإبداع فى مصر منذ بداية القرن الحالى ، بالرغم من أنه لم يبدأ التأليف الجدى قبل سنة ١٩٢٠ م .

و« توفيق الحكيم » اليوم أكثر الكتاب نصيبا من الأحاديث ومن الإقبال على ترجمة مؤلفاته . فقد نشرت كتبه باللغات الفرنسية والإنجليزية والروسية والألمانية والأسبانية والإيطالية والسويدية كما مثلت مسرحياته فى « لندن » و« باريس » و« بالرمو » و« استكهولم » و« سالزبورج » وأدرجت إحدى الجامعات الشهيرة فى « الولايات المتحدة » كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » بين ستين كتابا اختيرت تمثل أهم المؤلفات العالمية التى ظهرت بين سنتى ١٩٠٠ و ١٩٥٠ م ولكى نستعرض إنتاجه بإيجاز فى الإطار التاريخى الذى بنيه على حقيقته ، نذكر أن الشعراء الثلاثة الكبار « شوقى » و« حافظ » و« مطران » خلقوا الشعر العربى الحديث فى مصر — فى مطلع القرن الحالى — بإنتاجهم الرائع المتباين الألوان . وقد لحق بهم رعيل من الشعراء المجددين ، منهم « العقاد » و« المازنى » و« شكرى » . ومن ثم فقد أخذت النهضة الشعرية تتقدم بخطا سريعة قوية .

على أن النثر لم يحظ — فى البداية — بالتقاء عبقريات ومواهب كهذه التى حظى بها الشعر ، فاقتصر على المقالات الدينية والفلسفية والتاريخية ، كتلك التى كتبها « الأفغانى » و« محمد عبده » و« لطفى السيد » . بعد أن كان محصورًا فى نطاق ما ترجم عن الأدب القصصى والمسرحى الأجنبى — والفرنسى بوجه خاص — وعن الأدب اليونانى القديم . ثم ظهرت فى الأدب العربى المعاصر بعد ذلك محاولات فى المجال التاريخى والمجال الشعبى ، عالجها « المنفلوطى » و« زيدان » و« رمزى » و« محمود تيمور » ، و« محمد حسين هيكل » و« العقاد » و« المازنى » وقدر لطه حسين — فى تلك الأثناء — أن يبرز بأسلوب ممتاز تحالف مع تفكير حديث ، فى سلسلة من الكتابات فى النقد والتاريخ والفلسفة ، وبعد ذلك فى قصص — مثل «الأيام» الذى كان من أبرز معالم جيله كله . فى هذه الحركة الواسعة النطاق ، ظهر إنتاج « توفيق الحكيم » فقدر له أن يكون صاحب الشرف فى خلق أدب مسرحى نثرى حقيقى مبتدع للمرة الأولى فى تاريخ الأدب العربى ، وأن يبث فى الأدب القصصى دوافع جديدة ، سواء بجودة بناء القصة والأسلوب ، أو بحسن اختيار الموضوعات المستمدة من واقع الحياة القومية والاجتماعية فى مصر .

* * *

ولد « توفيق الحكيم » فى « الإسكندرية » ، فى سنة ١٨٩٨ م ، كما يستدل من تاريخ حياته ، وفى سنة ١٩٠٢ م ، كما تردد فى أقواله ، فى أسرة مصرية من الطبقة الوسطى وكان أبوه قد انتقل إلى الريف — إبان الفترة التى ولد فيها — فلم يستطع أن يشهد مولده ، إذ احتجزته أعماله القاسية

التى قدر لتوفيق الحكيم أن يصفها فيما بعد بأسلوب مفعم بالفكاهة . ومع ذلك فإن والد المؤلف لم يفكر قط فى أن يهجر وظيفته ، فما لبث أن أصبح قاضيًا ، ثم مستشارًا فى المحاكم . وليس من شك فى أنه كان يحب عمله — رغم ما فيه من واجبات مستبدة غاشمة — حتى إنه حرص على أن يحذو ابنه حذوه ، ويترسم خطاه ، على أن هذا الابن أظهر ، منذ صباه ، أنه لم يكن أصم عن سماع نداء آخر . إذ كان قد تعرف على الأوساط الفنية فى أكثر نواحيها تواضعًا ، ممثلة فى ممثلى الفرق التمثيلية المتنقلة ، والحواة والمشعوذين الذين كانوا يقيمون حفلات فى المراكز !...

وكان لهذا الوسط البوهيمى ، وللدنيا المصطنعة بين جنباته — دنيا الثياب التنكرية ، والمناظر المسرحية و« الماكياج » ، أثر كبير على خيال الفتى اليافع ، وسحر لا يقاوم ، حتى إنه كان يهمل دروسه ليجرى فى أعقاب زملائه الجدد . ولم يرق هذا لوالديه اللذين لم يكن ليخطر ببالهما إطلاقًا أن هؤلاء الممثلين البائسين ، بأزيائهم الزرية ، إنما كانوا يفتحون لابنهما نافذة تطل على جنة الفن ، وكانوا يذكون بين جوانحه جذوة مهنة أتيح فيها كل هذا الإنتاج الوافر من الأعمال الأدبية . والواقع أن انغماسه فى ارتياد هذا الوسط ، وفى مخالطة هؤلاء الناس ، كان يبدو من الأمور التى تشين أبناء الأسرات الطيبة فى ذلك الحين ، على أن « توفيق الحكيم استطاع أخيرًا أن يظفر بإجازة القانون فى مدرسة الحقوق بالقاهرة فى سنة ١٩٢٤ م .

على أنه كان — فى تلك الأثناء — قد بدأ يكتب المسرحيات ، فوضع أولى مسرحياته فى سنة ١٩١٨ . ولم تحن سنة ١٩٢٤ حتى كانت له

مسرحيات تمثل فى المسرح ، ويساهم فى إخراجها بنفسه ولم يعد أبواه يملكان أن يمنعا هذا الابن — الذى أصبح رجلا — من غشيان الأوساط المسرحية فى العاصمة ... الأوساط التى كانا يريان — بلا شك — أنها ذات آثار خلقية سيئة على أمثاله ...

وكانت مصر قد شرعت تجتاز مرحلة حاسمة دقيقة من تاريخها ، فى السنوات الأخيرة للحرب العالمية الأولى ... مرحلة كان مقدرًا لها أن تحدث تحولا بعيد المدى فى نفوس جميع شباب ذلك العهد . ذلك لأن الثورة الوطنية التى امتدت من سنة ١٩١٩ م إلى سنة ١٩٢٢ م كانت جماع قرن كامل من التقدم والرقى ، امتدت فيه يد التطور الحديث إلى كل ناحية فى البلاد التى تفتحت للأفكار الحديثة التى كانت فى تفاعل وتخمر مستمرين فى أوربا منذ الثورة الفرنسية حتى الثورة الروسية . وكانت الآراء الخاصة بالقومية وبالديمقراطية السياسية والاجتماعية قد تغلغلت فى مصر إلى حد بعيد بفضل الصفوة المثقفة من أبناء مصر ، والذين تعلموا فى فرنسا ...

وكان الحلفاء — الذين قدر لهم أن ينتصروا فى الحرب العالمية الأولى — قد بذلوا كل لون من الوعود القائمة على حرية الشعوب فى تقرير مصيرها ، بغية اجتذاب مصر إلى الصراع الذى كان دائرًا ضد الأتراك ، وكانت مبادئ الرئيس « ولسن » الأمريكى الأربعة عشر قد أعلنت ... وكان الشعب المصرى قد فطن فى مرارة إلى نفسه وإلى مصالحه التى كانت تتعارض مع مصالح البيت المالك والطبقة الأرستقراطية التى كانت مؤلفة من أتراك ... كان قد فطن إلى كل ذلك منذ ثورة عرابى فى

سنة ١٨٨١ م . ومن ثم فقد ساهمت كل هذه العوامل ، نهضة الأدب والفكر فى عهد « الأفغانى » و« محمد عبده » إلى عهد « مصطفى كامل » و« لطفى السيد » أستاذ الجيل الذى كان يدافع باستمرار فى صحيفته « الجريدة » عن مبادئ الحرية ، وعن القومية ، وعن ضرورة التفكير على أسس علمية ومنطقية ... ساهمت كل هذه العوامل فى التمهيد للثورة القومية .

ومن ناحية أخرى كان سكان المدن ، وكذلك الفلاحون ، فى مصر قد تأثروا بدرجة كبيرة خلال الحرب العالمية الأولى ، من جراء الارتفاع الخيالى الذى طرأ على أسعار القطن ... وكانت حركة التصنيع بدأت وظهرت حركة عمالية منذ سنة ١٨٩٩ م . وقد أدى كل هذا إلى أن يشعر سكان المدن فى مصر بقوتهم ، مما حفز الشعب على أن يعرض مطالبه على المعتمد البريطانى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ . ثم على مؤتمر السلام بفرساى ، وعلى كل من « كليمنصو » و« ويلسون » و« لويد جورج » رؤساء حكومات الدول الكبرى الثلاث إذ ذاك . وقد أجابت إنجلترا على ذلك بأعمال استعمارية وحشية ؛ ثم عمدت فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ إلى نفى الزعيم « سعد زغلول » إلى « مالطة » ؛ مع ثلاثة من زملائه . وفى اليوم التالى مباشرة ؛ قامت الثورة الوطنية ضد الاحتلال ، انتهت — بعد نفى « سعد زغلول » وبعض زملائه مرة أخرى إلى سيشل — بالاعتراف بمصر مملكة ، وبإعلان ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٢ م .

* * *

فى خلال هذه الفترة الحافلة ، التى تأججت فيها شعلة القومية فى شوارع القاهرة ، وفى مصر كلها ، لاسيما فى نفوس الطلبة بالذات … فى هذه الفترة . بدأ « توفيق الحكيم » ينضج .

فى تلك الفترة الزاخرة بالانفعالات أقبل المسرح المصرى على عصره الذهبى ، ممثلا فى فرق « نجيب الريحانى » و « على الكسار » و « زكى عكاشة » ، التى كانت تعتمد على مؤلفين من أمثال « أمين صدقى » ، وعلى ملحنين من أمثال « سيد درويش » . وراج إذ ذاك نوع من المسرحيات الفكاهية — « الكوميديات » الشعبية المصحوبة بأغان ورقصات وموسيقى . بيد أن الأحداث السياسية التى أدت إلى نفى سعد زغلول ورفاقه ، وإلى ثورة سنة ١٩١٩ ، كانت ذات تأثيرات عظيمة على المسرح الشعبى . إذ أنه انتهز الفرصة ليدخل على مسرحياته إيحاءات وطنية متوارية ، وعلى أغانيه نغمة قومية تناسب الموقف وتستمد من وحيه . وسرعان ما أصبحت هذه الأغانى تردد فى الشوارع … وهكذا ساهم المسرح الشعبى — فى تلك الفترة — فى القضية السياسية لمصر .

وفى هذا الجو المشحون بالانفعالات الوطنية ، وبالصراع السياسى ، وبغنى المسرح القومى ، كان « توفيق الحكيم » يجتاز أهم سنى العمر ، وهى السنون التى تمتد من الثامنة عشرة إلى الخامسة والعشرين ، ففيها تجلى حبه العميق للمسرح … ذلك الحب الذى كان كامنًا — دون ماريب — فى أعماقه ، والذى كان ينمو ويستوى كالنبتة القومية ، والذى كان ينمو نموًا قوميًا واقعيًا ، فألهمه أولى رواياته : « عودة الروح » التى قدر لها أن تنشر فى سنة ١٩٣٣ ، على أنه — فوق هذا — راح يغذى الفرق التمثيلية

التى قامت فى تلك الفترة بمسرحيات كان يبتكر أفكارها ويكتب حوارها دون أن يضع اسمه ولقبه عليها ومن ثم اكتسب تجربة ككاتب مسرحى على اتصال دائم بالممثلين الذين كانوا أكثر منه خبرة بضرورات الإخراج وتكوين المناظر ، بحكم ما كانوا يلمسونه من نجاح أو فشل فى اتصالاتهم اليومية بالجمهور … فاكتسب « الحكيم » من خبرتهم ما أفاده فى استكمال استعداده للتأليف المسرحى .

وكانت أولى مسرحياته تسمى « الضيف الثقيل » فى سنة ١٩١٨ وكان من الواضح أن إنجلترا هى الضيف الثقيل الذى لم يدعه أحد ، ولكنه أقبل دون استئذان ، ثم أبى أن يبرح الدار . وقد منع الرقيب المسرحية ، فلم يقدر لها أن تمثل … على أن ثلاث مسرحيات أخرى — كتبها لفرقة « زكى عكاشة » — لقيت قبولا ، ولكنها لم تشتهر ، وهى : « الخطيب » — التى مثلت فى سنة ١٩٢٤ و « المرأة الجديدة » وقد مثلت فى سنة ١٩٢٦ — وأوبريت « على بابا » ، وقد أخرجت فى سنة ١٩٢٦ كذلك .

ومع ذلك ، فإن أباه لم ير فى كل هذا الاتجاه الذى لا يقاوم نحو الوسط المسرحى . سوى مظهرًا للفساد ، برغم أنه كان قاضيًا منصفًا . ذلك لأنه لم يحدس مدى عمق ذلك الحب وتأصله . ولا على أى أساس روحى خالد كان يقوم ؛ فقد غفل — ككل الآباء — عن مواهب ابنه ، ولكى ينتزعه من هذه النزوات ، أوفده إلى باريس لكى يستكمل دراساته القانونية ويحصل على « الدكتوراه » ولكنه لم يفطن قط إلى أنه إنما أوفده إلى عكس ما كان يبغى تماما . فما أن استقر الشاب فى باريس ، والتحق

بكلية الحقوق ، حتى اتجه — كما تتجه إبرة البوصلة نحو الشمال — إلى الأوساط الفنية والأدبية البوهيمية ، وإلى المقاهى التى كان الممثلون يغشونها ، وكثيرًا ما كانت قدماه تقلانه إلى مسارح « البوليفار » و« مونبارناس » و« مونمارتر » بدلا من قاعات المحاضرات فى « السربون » .

وانقضت ثلاث سنوات — من ١٩٢٥ إلى ١٩٢٨ — قبل أن يفقد أبوه الأمل فى أن يراه حاملا للقب « دكتور فى القانون » ... ثلاث سنوات أنفق الشاب وقته خلالها فى قراءة الأدبين : المعاصر والقديم : وفى شحذ قريحته ، وفى صقل مواهبه وذوقه .

* * *

ولكن لكل شيء نهاية ...

ففى ذات يوم ، عزف الأب المصدوم فى آماله عن أن يبعث إلى ابنه بالمعونة المالية التى كان يسيء استخدامها فيما لا نفع له — كما كان يرى — وأرسل إلى ابنه يستدعيه للعودة إلى مصر . على أن الأمل لم يفارقه فى أن يرى ابنه يتخذ المهنة التى ارتقى هو درجاتها موفقًا . ومن ثم فقد قضى « توفيق الحكيم » المدة بين سنتى ١٩٢٨ و١٩٢٩ عضوًا فى المحكمة المختلطة بالإسكندرية . وكان هذا المنصب ملائمًا له كل الملاءمة ، فهو فى العاصمة الثانية للبلاد ، وهو منصب مرموق ، لامع ، يكسب صاحبه مكانة اجتماعية ، ومن ثم لم يجد « توفيق الحكيم » فيه أية غضاضة أو مضيعة لأحلامه . حتى إذا كانت سنة ١٩٢٩ إذا به يعين نائبًا لدى المحاكم الوطنية .

وقدر للشاب فى الأعوام الأربعة التالية ، أن يرى مصر كما لم يرها من قبل . لا الواجهة الجميلة لمصر ، التى تتمثل فى أهل المدن ، وفى مظاهر المدنية الحديثة فى القاهرة والإسكندرية . وإنما الواجهة التى تتمثل فى المجتمع الأكبر . مجتمع أبناء المدن الصغيرة ، وأدنى أوساط الطبقة الوسطى ، فى البنادر والمراكز الريفية التى تنقل بينها بحكم منصبه ... وحولها الريف الواسع الشاسع بأهله الذين لا حصر لهم من الفلاحين الكادحين ، وكان هذا بالنسبة لتوفيق الحكيم بمثابة رفع حجاب عن عينيه ، ليرى فرط شقاء هؤلاء القوم ، وعواطفهم العنيفة الكظيمة من ناحية — ولطفهم ومرحهم وروحهم الشاعرية التى كانت بمثابة منحة من السماء ، أو نعمة جعلت عيشهم الزرى محتملا بالنسبة لهم .

وراح يقيس السياج الخفى الذى كان يفصل الفلاحين من أهل مصر الذين يعيشون فى عهد متأخر عن عهد مواطنيهم الموظفين من أهل المدن ، الذين كانوا يطبقون عليهم قوانين مستمدة من قوانين نابليون ، التى لم يكونوا يفقهون منها شيئًا ، ومع أنهم كانوا مطواعين سلسى القياد ، فإن أحدًا لم يعن بمساعدتهم فى محنتهم وشقائهم .

وفى خلال هذه الفترة من حياته ، راح « توفيق الحكيم » يجمع مشاهداته عن حياة الفلاحين ، وعن عاداتهم وعن كلامهم ، وعن معتقداتهم ، وعن ظلم أو إهمال الموظفين الحكوميين لشؤونهم ، وعن طغيان ملاك الأراضى الأغنياء ... وهذه المشاهدات التى استخدمها بعد ذلك فى « يوميات نائب فى الأرياف » — فى سنة ١٩٣٧ — وفى كثير من القصص التى تضمنتها المجموعة المسماة : « ذكريات فى الفن

والقضاء » ، التي نشرت في سنة ١٩٥٣ ثم في مسرحية : « الصفقة » ، التي مثلت في سنة ١٩٥٧ ،

وبعد أربع سنوات من العمل الذى كان يعافه لولا أن وجد فيه نواحي فكهة ، وشاعرية كذلك ، كان توفيق الحكيم قد جمع كل ما ينبغي أن يعرف عن بلاده ، وعن شعبها وأثقلت فؤاده صور التعاسة والشقاء التي كانت تحيط به . وإن لم يكن أثرها عقيما في نفسه . فما لبث أن تعطش إلى العودة إلى الأوساط المتمدينة ليطلعها على هذه الصور وشعر بأنه لا سبيل إلى إثارة انتباه الرأى العام بالمؤلفات والمقالات إلا إذا استقر به المقام في عاصمة البلاد ، ومن ثم طلب تحويله إلى وزارة المعارف العمومية « وزارة التربية والتعليم » . وفي تلك السنوات كانت جهوده الأدبية في نضوج وتقدم — برغم الجو الذى كان يعيش فيه — فما لبث أن نشر في سنة ١٩٣٣ أولى مسرحياته الفلسفية التي أثارت ضجة ومعارضة كبيرة ، وهي : « أهل الكهف » .

وإذا علم النائب العام أن أحد معاونيه هو سر الضجة التي ثارت حول أحد الأعمال الأدبية ، حتى استدعاه ونصحه — في نهاية المقابلة — بأنه كان من الأفضل لو أنه برز بمؤلف في « القانون » فانتهز توفيق الحكيم هذه الفرصة ليجيب قائلا بأنه من الأنسب لحياته الأدبية وما قد تثيره من ملابسات لا ينبغي أن تؤثر على منصبه القضائي ، أن يحول إلى وزارة المعارف العمومية .

وهكذا لم يقدر للنزاع الطويل بين ميوله المتأصلة ككاتب ، وبين دراساته ، وبين منصبه القضائي الذى حاول أبوه أن يحمله على المضى

فيه ... لم يقدر لهذا النضال أن ينتهي إلا وقد بلغ « توفيق الحكيم » السادسة والثلاثين ، فعين مديرا لإدارة التحقيق بوزارة المعارف العمومية في سنة ١٩٣٤ ، وهو منصب قضائي هو الآخر ، ولكنه أكثر تحررا من سابقه ، وأدعى لاستقرار صاحبه في القاهرة ، وما لبث الكاتب أن نقل في سنة ١٩٣٩ م إلى وزارة الشئون الاجتماعية — التي أنشئت على أثر الضجة التي أثارها كتابه « يوميات نائب في الأرياف » لا سيما التعليقات المهتاجة التي نشرتها الصحف عن هذا الكتاب الذى عرض بصراحة صادقة — لأول مرة — الأحوال الاجتماعية للفلاحين .

وفي وزارة الشئون الاجتماعية عين « توفيق الحكيم » مديرا لمصلحة الإرشاد الاجتماعي ، التي تسمى — في بداية عهد الوزارة — بمصلحة الإرشاد القومي ، وكثيرا ما تعرض توفيق الحكيم خلال عمله لغضب رؤسائه من جراء مؤلفاته ومقالاته التي كانت تهاجم جميع الجهات ذات السلطان على السواء . وكم من مرة أنذر بالإيقاف والتحويل إلى مجلس تأديب . ولكن خوف المسئولين من ثورة الرأى العام ولما كان للكاتب كثير من الأنصار في الصحافة ، انتهى إلى خصم مرتب نصف شهر ، وهو أقصى ما كان الوزير يملك أن يقضي به ، وفقا للوائح .

على أن توفيق الحكيم لم يعد — في سنة ١٩٤٣ — يطيق القيود التي كانت الوظيفة تفرضها على حريته ، ولا المضايقات التي كان معرضا لها كموظف ، فقدم استقالته من العمل الحكومي ليصبح حرا يستطيع أن يعبر عما يجيش بنفسه ، ومع ذلك فإنه قبل — في سنة ١٩٥١ — منصب المدير العام لدار الكتب . وهو منصب كان يبيح له كل الحرية في أن يكتب

ما يشاء فى جو ملائم . حتى إذا أنشئ المجلس الأعلى للفنون والآداب — فى سنة ١٩٥٦ — عين توفيق الحكيم عضوًا دائمًا فيه ... وهو منصب ظل يشغله إلى أن عين فى منصب المندوب الدائم للجمهورية العربية المتحدة فى « اليونسكو » بباريس ، بعد أن حظى بأرفع وسام فى الدولة .

* * *

ولا يبدو أن للمسائل الشخصية — من غراميات ، أو عواطف أو رياضة أو أية هواية — مكانًا كبيرًا فى حياة « توفيق الحكيم » فقد انصرف بكل ذاته إلى الأدب والمسرح والصحافة فى أوقات الفراغ التى كانت أعماله الحكومية تتركها له ، ولعل رياضته الوحيدة تمثلت فى حبه للجلوس فى المقاهى — فى فترة العصر من كل يوم — بصحبة الأصدقاء الذين يلتفون حوله ... ولعل هوايته هى العصا و« البيريه » اللتين لا تفارقانه ... والبخل الذى يشاع عنه !.

ولم يقبل « توفيق الحكيم » أن يشتغل بالسياسة الحزبية ولا بكتابة المقالات السياسية بالمعنى الحزبى المعروف . بل إنه جعل يسجل استهجانه للأحزاب السياسية جميعًا ، والنظام الديموقراطى الزائف الذى ساد مصر منذ انتهاء الثورة فى سنة ١٩٣٢ ، وذلك بمقالات أدبية ، فى أسلوب مفعم بالسخرية ، فقد كان ذلك النظام الديموقراطى — كما صوره فى « شجرة الحكم » — يتيح لمحترفى السياسة أن يجنوا كثيرًا من الثمار الشهية . وقد أصدر هذا الكتاب فى سنة ١٩٤٥ ، وضمنه مقالات حمل فيها على هذه المساوئ . كما أنه عالج مشكلة الحكم والسلطان فى مصر — فى سنة ١٩٣٩ — فى مسرحية من وحى الشاعر الإغريقى الفكه

« أريستوفان » ، سماها « براكسا : أو مشكلة الحكم » . وفى بعض مؤلفاته الأخرى التى تعالج نفس الاتجاهات ، مثل « يوميات نائب فى الأرياف » ، وعدد من قصصه القصيرة ، و« مسرح المجتمع » — الذى أصدره فى سنة ١٩٥٠ ، والذى ضم ٢١ تمثيلية — و« ذكريات الفن والقضاء » ... بل ومسرحيته « الصفقة » ، فإن هذه كلها تسعى إلى كشف أسباب العلة فى الظروف الاجتماعية الاقتصادية التى صورها « الحكيم » بأسلوب واقعى تخالطه حرارة العاطفة ، ولطف الفكاهة والشعر . فقد رأى أن الفكاهة والشعر كانا دائمًا صنوين لا يفترقان عن الشقاء والبؤس فى الريف المصرى .

ولقد ظل « توفيق الحكيم » معروفًا لأمد طويل بأنه « عدو المرأة » لما نشره من مقالات حافلة بالسخرية والفكاهة عن الحركة النسوية المصرية « وعن اشتغال المرأة بالأعمال » وكانت « براكسا » بالذات ، مثالا واضحًا لذلك : على أنه لم يلبث فى سنة ١٩٤٦ م أن تزوج ، وكان زواجه موفقًا سعيدًا ، وأتاح لعدو المرأة أن يصبح أبًا لولد وابنة .

* * *

وتزخر مؤلفات « توفيق الحكيم » بالتناقض الأسلوبى . فهى تلفت النظر لأول وهلة بما فيها من واقعية التفصيلات وعمق الرمزية الفلسفية ... بروحها الفكهة وبرقة شاعريتها ... بنزعة حديثة مقترنة — فى كثير من الأحيان — بنزعة « كلاسيكية » ...

ذلك لأن « الحكيم » فنان فى أعماقه ، ولعله من أكثر الكتاب الكبار فنًا ، لا فى مصر وحدها ، ولا فى الأدب العربى فحسب ، بل فى الأدب

العالمي بأسره ، فقد أخذ من الإغريق القدامى تقدير العمل المتقن الأداء ، وحب المسرح الذي يصور مصير الإنسان خلال قصة رمزية ، تعالج غالبًا بدقة تتسم بكثير من الواقعية والتحليلات النفسية والتاريخية والسياسية والاجتماعية في آن واحد . وقد عرف كيف يكتسب لنفسه شيئًا من فكاهة « أريستوفان » وذكائه اللاذع ، ومن الشاعرية الدرامية التي امتاز بها « يوريبيدس » و « سوفوكل » وكثيرًا ما وفق إلى ذلك التوازن الرفيع بين عناصر عديدة متباينة ، بعضها يتصل بالحياة أو بالخيال ، وبعضها بالحس أو العاطفة ولكنها تتسق جميعًا حول الشخصيات الرمزية ، وتدع للفكر الغلبة في النهاية ، بعد موت الأبطال أو فشلهم ، وبعد غياب الممثلين عن المنصة .

ولا يبدى « توفيق الحكيم » هذه البراعة في المسرحيات التي تدور حول موضوعات أسطورية قديمة — مثل « بيجماليون » و « براكسا » و « الملك أوديب » فحسب ، بل إنه لم يكد يصل إلى سر صنعة الإغريق ، حتى عكف على محاولة تطبيقه على موضوعات جديدة : ليخلق شخصيات جديدة ، كتلك انصهرت في أعماقه آداب أخرى بنفس الدرجة ... آداب الشرق في عهد ازدهارها — أيام « ألف ليلة وليلة » وأشعار « ابن الرومي » و « أبي نواس » و « المتنبي » ... وآداب الغرب ممثلة في إنتاج « شكسبير » و « راسين » و « ميترلنك » و « إبسن » و « جيرودو » و « بيراندللو » و « كوكتو » . وقد تضافرت هذه العناصر متكاتفة مع شخصيته الفنية لإنتاج مسرحيات رصينة متزنة .

وإلى جانب ذلك ، أوتى « الحكيم » روحًا حديثة ، وموهبة مجددة ،

بالرغم من إغراءات الفن ، وفتنة الموضوعات الكلاسيكية والشخصيات الرمزية الخالدة . وقد تجلى هذا إلى درجة كبيرة ، بما أضافه — إلى كل ما سبق — من الواقعية المستمدة من الدراسات النفسية ، مما يوحي بإلمام واسع بالثقافة المعاصرة ، وبالتحليل المنطقي بوجه خاص . فبهذا توسل إلى تفادي المغالاة في الحركة المادية ، التي كانت كفيلة بأن تكسب مسرحياته شيئًا من المبالغة .

* * *

على أن الفن لا يتعارض مع الحياة عند « توفيق الحكيم » ، بل إنه — على العكس — قد أتاح له أن يوقع النغم المناسب ، المليء بالأصداء والرنين ، أو بما يختار الفنان أن يشحنه به من معان . ففي « يوميات نائب في الأرياف » يرد الوصف الواقعي لحال الفلاحين في سياق عقدة روائية شبه بوليسية !. لا يكشف المرء غموضها قط ... كما في ذلك الشعر الغامض الذي ساقه على لسان « شريد به خبل » هو « الشيخ عصفور » وهو يتغنى بمحبوبته .

هذه الخيوط المتشابكة يحذق الكاتب جدلها بمهارة الفنان ، لينتج صورة تطبع على صفحة النفس أثرًا أكثر شمولا لوقائع الحياة « الحياة في الريف المصري ... تلك الوقائع التي كان يراها ، والتي يقوم فيها — إلى جانب ما كان يستهجنه ويعلنه من شقاء الفلاحين — ذلك الجانب الشاعر الغامض ، وتلك الجرائم التي كان يدرك أكثر من سواه أن لا سبيل لامرىء إلى أن ينفذ إلى سرها .

* * *

وفى الوقت ذاته ، نرى أن « الحكيم » يجيد استخدام وسائل الفن المختلفة لخدمة الموضوع . ففى « عودة الروح » وفى « ذكريات فى الفن والقضاء » ، وفى تمثيلياته الفكهة ، نجد أن الفن يتمثل دائمًا فى بنيان الإنتاج الأدبى ، وفى الأسلوب ، مستخفيًا بحيث يدع الصورة تبدو بمظهر واقعى محض . وهذا عين ما حدث فى « الصفقة » . فهنا عمد الكاتب إلى تجربة استخدام لغة عامية تمامًا ، ولكنها تخضع لقواعد اللغة العربية الفصحى . وهذا مثال للفن المستتر الذى يسمح بعرض الواقع بكل ما له من نكهة شعبية أرضية .

وبوسع المرء أن يقول : إن الفن كان دائمًا العنصر الجوهرى فى حياة « الحكيم » بأسرها . فلا يعرف أحد فى حياة هذا الكاتب عاطفة جامحة ، أو عملا سياسيًا خارج نطاق الفن فإن الرجل المتمثل فى شخصيته اعتاد أن ينظر إلى الأحداث السياسية ، وإلى الأشخاص الأعزاء لديه ، وإلى المواقف الخاصة والمواقف القومية خلال فنه ، فنجد أن الفن قد خدم هذا الفنان فى التعبير عن حبه وعن عواطفه ، وللتسامى بأحزانه وصدماته النفسية ، وليحقق — فى دنيا المسرح — أهواءه وأمانيه ، فيبنى واقعًا يخضع للقواعد والقوانين التى يفرضها الفنان . فكان الفن ، والفن المسرحى بوجه خاص ، ملاذًا « لتوفيق الحكيم » من قسوة الحياة ، فقبه الأمل الذى يمنى نفسه بتلك الجنة المصطنعة ، التى بهرته على مسارح الفرق التمثيلية المتجولة . وهو بعد صبى صغير . فالفن له — كما كان يشتهيه « أرسطوطاليس » — مطهر لنزوات نفسه ومحقق لها فى دنيا لا تخضع للمصادفات ، وإنما تخضع فيها إرادة الغير لإرادته الشخصية ، أو لإرادة

الفنان الكامن فى نفسه على الأقل .

على أننا يجب أن لا نستنتج من هذا أن « توفيق الحكيم » داعية من دعاة « الفن من أجل الفن » ، يعيش حبيسًا فى أطواء فنه كمن يعيش فى برج عاجى ، فهو يستطيع خلال عدسة الفن وحدها كل جواهر الدنيا التى كان يراها فى الواقع بكل أدوائها الاجتماعية ، وديموقراطياتها الزائفة . إن « توفيق الحكيم » يعيش الأحداث خلال فنه ، فساهم فى الجهاد الوطنى والسياسى والاجتماعى ، متكلما بألسنة شخصيات تصيح من وراء قناع الفن المجسم كما كان يحدث أيام الإغريق ، وهى طريقة تضخم صوت الإنسان — كما هو معروف — كى يصل إلى أسماع الحشد الذى لا حصر له .

وحتى كتابه « من البرج العاجى » إن هو إلا صيحة المؤلف بخيبة أمله فى سلطان رجل الفكر أمام رجال السياسة ، وبالعزلة التى يصادفها الكاتب فى أداء رسالته وهو يصف الحياة ويكشف عما فيها من قوى مسيطرة ، وهى مهمة أشبه بمهمة الكورس فى « التراجيديات » القديمة . هذه الخواطر ذات الطابع الفردى . تحمل فى الواقع دليلا على موقف الكاتب فى مجتمع لا يأخذ رسالته مأخذ الجد ... مجتمع يبلغ عدم فهم الفن درجة تسيء أبلغ إساءة إلى سلامة ضميره .

* * *

وبعد ... فما هى الفكرة التى تساند وتوضح حقائق الحياة التى يعرضها « الحكيم » فى مسرحياته الكبرى المستمدة من الأساطير والقصص الدينى ؟... إن « أهل الكهف » و« شهر زاد » و« سليمان

الحكيم » و« بجماليون » و« أوديب ملكا » تكشف لنا عن أصول هذه الفلسفة .

لقد حاول « الحكيم » — كمعارض لمذهب « الإرادة » بطبعه — أن ينقض فلسفة أوربية معينة ، لا سيما مذهب « نيتشه » بالذات . فالمرء فى نظر نيتشه — وكذلك فى نظر « أندريه جيد » وغيرهما حر مطلق الحرية ومنفرد تمام التفرد فى الكون . وقد أراد الحكيم أن يبين فى تمثيلياته أن الإنسان ليس صاحب السلطان الأوحد ، ولا هو حر مطلق الحرية . « وإنما تنبع عظمته من نضاله الباسل فى سبيل الانتصار فى حرب مستحيلة ضد القوى غير المرئية المسيطرة على مصيره » ، فنرى الكاتب يعيد ذكرى الحكمة الإغريقية القديمة التى تتجلى بأقوى تعبير فى التمثيليات التراجيدية الإغريقية ، ولكنه يصوغ هذا الفكر العميق فى قالب حديث ... وهذه القوى الخفية التى توجه مصيره ، والتى يناضلها هى قوى لم تعد تتمثل فى آلهة العصور الغابرة ، ولا « القدر » بمفهومه القديم ، وإنما هى — لدى توفيق الحكيم — قوى طبيعية ، تنبع من وجود الإنسان نفسه ، فهى قوى توجد فيه هو الآخر كذلك ، فى داخله وليست خارجه .

ففكرة الزمن — مثلا — لم تعد تتمثل فى الإله « كرنوس » أبى الآلهة عند الإغريق — وإنما هى قانون طبيعى من قوانين الإنسان ... حقيقة واقعة تؤلف جزءًا من نسيجه ذاته ، وتمكنه من أن يعيش ، وهى تأسره فى الوقت ذاته ... فالكهف — فى « أهل الكهف » — هو سجن الزمن ، وهو سجن غير مادى . ولكنه فى الوقت ذاته جزء من وجودنا ، بحيث أن الاتصال بين أهل العصر الذى نوجد فيه ، وبين من هم ليسوا معاصرين لنا

(السلطان الحائر)

يصبح مستحيلا . أى أن الإنسان ليس حرًا فى التحرك داخل الزمن ، أو الحياة فى أفكار غابرة حتى لو أراد ذلك ، إنها دعوة إلى مقاومة الرجوع إلى الوراء ، لأن كل عصر له حياته وأفكاره ، وقد ظهر فيها « إفلاس البحث » إلى نفس الحياة السابقة ...

والقوة الأخرى التى تمنع الإنسان من أن يكون حرًا : هى إنسانيته ، وكونه مخلوقًا بين الحيوانية والروحية ، وهذا هو الطابع الذى يتجلى بقوة فى « شهرزاد » . فقد أراد « شهريار » أن يتخلص من كل ما كان يجعله إنسانًا ضعيفًا كغيره من البشر . وبعد أن أطلق العنان لشهواته فى كل اتجاه ، وبعد أن اغترف من كل الملذات والمباهج ، أراد أن يتجرد لا من الجسد وحده ، بل كذلك من الأحاسيس والعواطف ... من الحب أو الغيرة ... أراد أن يصبح معرفة خالصة ، أراد أن يجعل « المعرفة » فوق « الإنسانية » . أراد على كل حال أن يتجاوز نطاق الجاذبية الإنسانية فى أى اتجاه ، على أن شهريار — فى رأى « توفيق الحكيم » — رغب فى أن يهجر الأرض بحثًا عن سماء عليا مستحيلة ، فكان مقدرًا عليه أن يبقى معلقًا بين السماء والأرض ، نهبًا للقلق : وما شهريار سوى مثال لذلك الإنسان الأعلى الذى يرقى فوق مصاف البشر ... الإنسان الذى كان « نيتشه » يبشر به ... وهو — فى رأى توفيق الحكيم — لم يصل فى سعيه إلى شىء ؛ إنه أيضًا قد أفلس .

ومثال آخر ضد نظريات « نيتشه » و« أندريه جيد » . ذلك هو « أوديب ملكا » كما صوره « توفيق الحكيم » . فقد استعرض الكاتب المصرى دور « تيريسياس » — الكاهن الأكبر — على ضوء جديد

مبتكر ، فإن هذا الكاهن الأكبر الذى لم يكن يؤمن قط بالآلهة التى تمارس طقوس عبادتها ، لمن أروع الشخصيات « الحكيمية » التى تصور نظريات « نيتشه » لتسخر منها فى النهاية . فقد كان « تيريسياس » — فى الواقع — على ثقة لا حد لها بنفسه ، حتى لقد رغب فى أن يقوم بدور الآلهة ، وأن يصنع للغير قدرهم ومصائرهم . وكان يعتمد — فى تحويل المستقبل — على إرادته وحده . وقد أراد أن يغير نظام الوراثة فى البيت الملكى لمجرد إرضاء غروره بالعبث بمصائر البشر . ومن أجل هذه الغاية أقنع « لايوس » بأن ابنه مصدر خطر على حياته ، لأنه لن يلبث أن يقتله بمجرد أن يبلغ سن الرشد . ومن ثم أشار على « لايوس » بالإيعاز بقتل ابنه . ثم كان هو نفسه — « تيريسياس » — الذى ابتكر فيما بعد كل الشائعات عن خرافة الوحش الرهيب ، مستغلا فى ذلك الخوف الذى نشأ عن وجود حيوان كاسر هاجم بعض المارة . ثم كان هو نفسه الذى أعلن أن الذى يخلص البلاد من الوحش الرهيب « سيتزوج الملكة ويتولى الحكم ، وقد رغب فى أن يضع بذلك نهاية لنظام توارث الملك ، بأن يرفع إلى العرش أول قادم ... وكانت هذه مؤامرة لا تستغرب من « الإنسان » وقد رد عليها « القدر » بسخريته المعهودة ، فأنقذ « أوديب » وأرسله هو نفسه إلى البقعة التى يقوم فيها بالدور الذى دبره « تيريسياس » !

هكذا صور الحكيم ، إرادة الإنسان الأعلى — كما كان يرجوها « نيتشه » — صورها وهى تتحرك فى نطاق أوسع من نطاقها .. فى نطاق إرادة أخرى غير منظورة ... ولا يعد يهم بعد ذلك أن يسمى الإنسان هذه الإرادة ربًا ، أو قدرًا ، أو مصادفة ... إن عظمة الإنسان ليست فى أن

يرى نفسه الكائن الأعلى الحر الأوحد ، ولا فى أن يرى نفسه صنوًا للآلهة ، وإنما فى أن يعترف بوجود هذه القوى غير المنظورة ، التى تعترض طريقه ، والتى لا بد له من أن يناضلها دون هوادة .

* * *

ومع ذلك ، فإن هذا النضال لا يهدف إلى قهر هذه القوى ، وإنما هذا النضال ضرورى من أجل الحياة ذاتها ... ضرورى لكى يستطيع المرء أن يعيش ، إذ أن الحياة لا توهب جامدة ، وإنما هى تصنع من صراع دائب بين القوى المتعارضة فى أعماق نفوسنا وإن « بجماليون » لمثال بين الكفاح الدائر أبدًا بين الواقع والمثالية . فالإنسان لا يقنع إذا ما حظى بالواقع ... ولا هو يقنع إذا ظفر بالمثل الأعلى ، ذلك لأن الإنسان يشترك فى نظامين يتصارعان باستمرار فى أعماقه ... ولا ينبغى لأحدهما أن يتغلب .

وأخيرًا يبين « توفيق الحكيم » فى « سليمان الحكيم » أن الإنسان يقع كذلك ضحية لقوته الذاتية التى تستطيع أن تفقده الحكمة .

إن القوى الداخلية والقوى الخارجية سواء بالنسبة للإنسان ، فكل منهما جزء من الطبيعة ، والحرب بينهما — دون ما أمل فى سلام حاسم — هى قاعدة الحالة الإنسانية وقانونها . لأن أى انتصار حاسم ونهائى لعنصر منهما فيه ضياع للإنسان .

* * *

ولقد اتهم « الحكيم » بأنه متشائم فى فلسفته عن الإنسان ومصيره ، ولكن ... هل رسالة الكاتب هى أن يصطنع دنيا كاذبة وإنسانًا زائفًا

ليصور الإنسان حرًا كأنه إله ... حرية مصطنعة ترضي غروره وتعميه عن الحقيقة ؟...

لقد رأينا إلى أي مدى كان الفن جزءًا من حياة « توفيق الحكيم » ذاتها ، أو — بالأحرى — كيف كانت حياته جزءًا من الفن فمن المستحيل عليه أن يحرف ما يؤمن بأنه حقيقي ، دون أن يشوه الصورة التي يرسمها لنفسه وللدنيا ... إن ممارسة أي لون من الواقعية الحقيقية في دنيا الفكر ، وفي النظرة إلى العالم ، ليست تشاؤمًا ولا تفاؤلا ، لا سيما عند « الحكيم » بالذات فإن رسالة الكاتب — عنده — هي في تصوير الإنسان بحجمه الحقيقي بالنسبة للكون ، وأن يكشف وبين الأخطار الداخلية والخارجية التي تهدده ، وأن يحدد بدقة مجال ووسائل الصراع اللازمة في سبيل الحياة وفي سبيل التقدم نحو الحرية ونحو الأماني السامية .

كذلك يقف « توفيق الحكيم » على مسافة بعيدة من الطرف الأقصى الآخر « الوجودية الحديثة » التي ترى الحياة عقيمة ، ووجود الإنسان لا معنى له . فحياة الإنسان توفيق الحكيم لها معنى : هو سعي الإنسان الدائم إلى التوازن أو التعادل — شأنه شأن الكواكب — بين قواه هو فيما بينها ؛ ثم بالنسبة إلى قوى الكون الأخرى الظاهرة والخفية التي تحيط بها من كل جانب ، وهو يناضل حتى لا تجذبه قوى العدم كما جذبت كواكب ضخمة . ووسيلة نضاله هي اكتشافاته الدائمة لمنابع قوى جديدة في أعماقه يناهض بها ويوازن ويعادل قوى الكون التي تهدده . هذه الاكتشافات الدائمة لنفسه ولقواه هي في ذاتها غاية للوجود الإنساني . أنبل غاية لحياة الإنسان هي اكتشافه الدائم لقواه . لأن عملية الاكتشاف

عنده تولد حركة خلق متجددة فيها كل معنى الحياة المثمرة . لهذا كان لا بد من أن يكون الإنسان صادقًا مع نفسه في اكتشافه لها . وتلك رسالة الأدب الحقيقي في نظر الحكيم .

على أن توفيق الحكيم متفائل صراحة في قصصه وتمثيلياته الوطنية والاجتماعية ، التي يكشف فيها — هي الأخرى — الأخطار التي تهدد الفرد الاجتماعي ، لقد رُدت الروح وبعثت في مصر بفضل الجهاد والثورة الوطنية . وهذا موضوع عاد يعالجه ويصوره بصورة أخرى في « إيزيس » . وإذا كانت « يوميات نائب في الأرياف » قد عمدت إلى كشف بؤس الفلاح ، دون الإيحاء بعد بأي أمل ، لأن الكفاح العملي ضد الشقاء والفقر لم يكن قد بدأ بعد — نشر الكتاب ذاته كان من أسباب البدء — فإن « الصفقة » على النقيض إذ أنها تبين الفلاحين وهم يصارعون حالتهم الاجتماعية ، وتبشر بالانتصار . وهنا نجد القوى المصطرعة داخل نفس الإنسان تتمثل في الأنانية والغش ، والنفاق — في جانب — والتضامن والتعاون ، في جانب آخر . أما القوة غير المنظورة فتتجلى في غريزة سيطرة المال . ويبين المؤلف هنا أن من الممكن خوض هذا الصراع ، والفوز فيه .

ومن ثم ، فمن رأي « الحكيم » في مضمار النضال القومي ، أو الاجتماعي ، أو السياسي أن حرية الإنسان تعمل على تحسين مصيره .

وكما أنه كان من الخطأ القول بأن « الحكيم » متشائم — في المثل الأول — فمن الخطأ أيضًا القول بأنه متفائل ، في هذا المثل الأخير . ذلك أن « توفيق الحكيم » إنما يسعى إلى إبراز ما يعتقد في الواقع . ولكن واقعيته

لا تقتصر على رسم كل دقائق الأحوال المادية لأن هذا فى نظره بتر لحقيقة الحياة وإنما واقعيته هى أيضاً واقعية الفكر والمتضادات النفسية والخلقية ، التى تنطوى عليها طبيعة الإنسان ، وطبيعة الوسط الفكرى الذى يعيش فيه ...

* * *

على أننا نجد وراء كل هذا ، أن مجال الفن هو الذى ينقذ الإنسان ، فى خضم المتناقضات وألوان الصراع التى لا تنتهى ، والتى يفرضها عليه واقع الدنيا وطبيعتها الحقيقية . وهذا ما لم يدخل صراحة فى الفلسفة التى عبر عنها توفيق الحكيم . بل إن من الممكن القول بأنه ذهب فى « بجماليون » إلى العكس ، إذ بين أن الفن وحده لا يكفى . وراح هو فى محاولة طويلة يسعى إلى إعادة تشكيل الدنيا والإنسان ، دون أن يموه على نفسه أو يخدعها .

رقم الإيداع ١٩٢٧ / ٨٨
الترقيم الدولى × — ٠٣٥٨ — ١١ — ٩٧٧